تفسير القرآن بالقرآن

تفسير سورة

الروم

تأليف

أ.د / طه جابر العلواني

الناشر

الاتقان للترجمة والنشر والبحوث

تفسير سورة

الروم

تأليف

أ.د/ طه جابر العلواني

الناشر

الإتقان للترجمة والنشر والبحوث

2016 م

القاهرة: شركة الإتقان للترجمة والنشر (2016 م).

شركة الإتقان للترجمة والبحوث والنشر والتنمية البشرية

26 ب ش الجزيرة الوسطى، الزمالك، القاهرة

www.alwani.academy

www.alwani.org

info@alwani.org

taha.alwani@gmail.com

رقم الإيداع: 2016 / 22008

الترقيم الدولي:

978 - 977 – 85315 – 7 - 0

المقدمة

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(الفرقان:1)

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على رسول الله ومن اتبعه واهتدى بهديه إلى يوم لقاه. الحمد لله المحمود بكل لسان، ذي الطول، والفضل، والإنعام. المعبود فى كل زمان، ومكان، الذي فضّل ديننا على سائر الأديان، وأنزل القرآن ليحكم على الإنس، والجان، وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله، الذي أرسله رحمة للعالمين فى كل زمان، ومكان.

ثم أما بعد،

فإن القرآن الكريم قد يسّره الله للذكر وجعله نبيّا مقيما يخاطب به الأحياء ، كما يخاطب به من هم فى حكم الأموات ليبعث فيهم الحياة، ويوجد فيهم حقيقتها قال تعالى ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:122). فهو حياة كله فى وحدته البنائيَّة، وحياة للأمم عندما تجمع بين القراءتين، وهو حامل المنهج، والمؤسس له، قال تعالى ﴿ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:16). وإذا لم ينفعل الإنسان بالقرآن المجيد، وما فيه من الحياة والنور؛ فعليه أنّ يدرك أن ذلك ليس بناجم عن قصور فى القرآن؛ بل هو ناجم عن "وقر" فى آذان المستمع، والقارئ، أو "أكنة" على قلبه تحول بينه، وبين القرآن، أو بينه وبين تنزل على قلبه، فلا يخالط القرآن الكريم بشاشته، ولا يفتح مغاليقه، بل تحجب أنواره عن ذلك القلب ، قال تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (لقمان:7)، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصلت:5)، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام:25)، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء:46)، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف:57). ولذلك فإنَّ القارئ إذا لم يجد آثار القرآن فى قلبه، وأنوار تدبرّه فى نفسه وعقله ووجدانه فلا يلومنّ إلا نفسه؛ فليصلح من شأنها، وليقم بمعالجتها؛ لتحسن التلقى، وتمهر فى التدبّر فيحصل على نصيبه من أنوار القرآن الكريم وكرمه. ويعود هذا التفاعل بحسب تمرير الإنسان لآياته على قلبه وتكراره لها؛ فكلما ازداد التكرار ازداد التفاعل، وكلما ازداد التأمل والعيش مع الآيات والإحساس بها، كلما استشعر القارئ أن الله كأنّه يخاطبه بالقرآن المجيد الآن ولأول مرة، فيمرر ما يقرؤه بعينه إلى لسانه، ثم يعرج به إلى المخ، والجهاز العصبىّ ليفكر فيه، ويستشعره، ويجعله يجرى مجرى الدم منه، ويعود به إلى القلب؛ حتى يبلغ بالمتدبر حالة الوعى بما قرأه، وتدبَّره من القرآن الكريم، فيجب الإستشعار بالكلمات، والخروج بها من اللسان إلى المخيلة، ثم إلى القلب فيرقى شيئًا فشيئًا.

وحقيق بالإنسان ألا يكون بعيدًا عن الله، وحين يحرص الإنسان على العمل بآيات الله فى حياته، يستجيب القرآن الكريم له، ويعطيه أمورًا أكثر عمقًا؛ لأنه اتَّبع أمر الله، وبالاستمرار فى العمل، والتطبيق سيتحقق التدبُّر الأفضل، والفهم الأمثل.

وجدير بالمسلم أن يعلم المعوقات التي تحول دون تدبره للقرآن المجيد، وهي: الذنوب، واتخاذ أحكام مسبقة قبل التدبر، وتعضية القرآن الكريم فيقرأه على أنه آيات أو سور منفكة ومنفصلة عنةبعضها البعض ، كذلك جهله بعادات القرآن الكريم ولسانه الخاص به ، وكذلك جهله بالمقاصد العليا الحاكمة للقرآن الكريم ، وجهله بآثار مشكلة الناسخ والمنسوخ التي دخلت على الإسلام من توراة يهود، وأصبحت مصدرًا للتنازع بين المسلمين، والاختلاف فيما بيننا، وغموض الغاية من التدبُّر، كل ذلك يؤثر على فكر المتدبَّر؛ فيجب إخلاء ذهنه من ذلك قبل البدء في التدبُّر.

وعليه أن يتلو القرآن حق تلاوته، ويعمل على تفهم معانيه، ويجعل منه موجهًا له فى بناء نفسيّته، وعقليّته، ومنهجًا قويمًا؛ لتقويم وتكوين شخصيّته، وإذا فعل القارئ ذلك؛ فسيتمتع بالمواصفات التى تجعل منه عضوًا صالحًا فى هذه الأمة، وكيانها الاجتماعىّ، وأنَّه بلا شك

سيكون من الذين وصفهم الله بأنّهم عباد الرحمن ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ (**الفرقان:63**)، ووصفهم أيضًا بأنّهم من المفلحين ﴿**فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ**﴾ (**القصص:67**)، فاللّائق بالمسلم أن يجعل من القرآن الكريم منهجًا لحياته؛ ليكون من الذين يرثون الفردوس، ويكون من الخالدين ﴿**الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (**المؤمنون:11**).

ولو بذل الناس في تدبّر القرآن المجيد، ومحاولة فهمه جزءاً مما بذلوه ويبذلونه في تعلّم العلوم الأخرى ومنها ما أسموه "علوم القرآن" –التي وضعوها بأنفسهم بتصور أو بحجة أنّها هِيَ التي ستمهد إليهم السبيل لفهم القرآن– أقول: لو بذلوا جزءًا من هذه الجهود مع القرآن الكريم ذاته، في تدبّره، وفي ترتيله، وفي حسن تلاوته، حق التلاوة، أو في التفكّر فيه، والتعقل، والتدبّر، والتذكّر، والعمل على الوصول إلى مكنونه من داخله، وبأدواته، وبمنهجه؛ لنالهم خيرٌ كثيرٌ، ولتجنّبوا كثيرًا من السلبيّات التي يشتكي منها المتخصصون في كثير من تلك الجوانب، ولتغيرت حال الأمَّة المسلمة، ولسعت نحو الحضارة، ولاستحقت أن تكون أمَّة الشهادة بحق، وأمَّة الوسطيَّة بصدق.

القرآن المجيد والتفسير

منذ القدم والناس مختلفون هل يحتاج القرآن المجيد الذي وصفه الله وهو منّزِله بأنَّه مبين وأنَّ آياته جميعًا بيّنات ومبيّنات، هل يحتاج خطاب مثل هذا إلى تفسير وشرح وبيان، بعد أن وصف بذلك كله من قبل الله جل وعلا ؟!

ذهب كثير من أهل العلم إلى أنَّ القرآن لا يحتاج إلى تفسير، [1]وأنَّ حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلقه وسائر تصرفاته هي تفسير عملي له، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) حين تلا القرآن على الناس وعلمهم إياه كان يعلمهم القرآن كما نزل، ويعلمهم طرائق العمل به، ويسنّ لهم كيف يجعلون من آياته حياة يحيونها، وعملًا يمارسونه، فكان لا

[1] انظر ما ذكره الطبري في تفسيره، باب "ذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن"، تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر، المجلد الأول، ص84

يعلّمهم عشر آيات، إلا ويعلمهم كيف يعملون بها، ويعمل بها أمامهم، ويأمرهم أن يتبعوه ويتأسَّوا به وهو يعيش القرآن الكريم ويحياه.

وقال فريق: إنَّ القرآن جاء بلغة متحدية للخلق كافة، فهي لغة متعالية، لا يسهل على كثير من البشر فهمها ومعرفتها إذا لم تُفسر لهم وتُشرح، وأنَّ الشرح والتفسير لا ينافي كونه مبينًا وبيّنًا، وكون آياته بيّنات ومبيّنات.

ولكن سلوك رسول الله ﷺ وعدم قيامه بوضع تفسير للقرآن خارج عمله به يؤيد ما ذهب إليه الأولون، وإذا ذهبنا إلى كتاب التفسير في صحيح البخاري لا نجد فيه أحاديث مرفوعة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في التفسير إلا حوالي ثمانية وثمانين حديثًا[2]، ولا شك أنَّه لو فسر رسول الله ﷺ القرآن تفسيرًا بالمعنى الاصطلاحي لاحتجنا إلى أن نرى ما لا يقل عن ستة آلاف ومائتين وثمانية وثلاثين حديثًا في التفسير، إذا فسر كل آية بما يماثلها في عدد الكلمات والألفاظ، وإذ لم نجد شيئًا كهذا فذلك يدل على أنَّ عمله بالقرآن ومنهجه ﷺ في تعليم الناس القرآن والعمل به معًا أغناهم عن التفسير والمفسّرين، إضافة إلى فهمهم للغة القرآن ولسانه.

وإذا كان المتأخرون قد أقبلوا على ممارسة التفسير وتفننوا في أنواعه لأسباب مختلفة ففسروا بالمأثور والمعقول واللّغات، وبرزت أنواع من تفاسير الفرق والمذاهب والتفاسير الباطنيّة وما إليها، فذلك عمل الخلف لا يحتج به فيقوم دليلًا على ضرورة التفسير أو حاجة القرآن الكريم إليه، فالقرآن لا يحتاج إلى التفسير بالمعنى الاصطلاحيّ، ويكفي للأجيال التي جاءت بعد جيل التلقي تفسير القرآن بالقرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، والذين تابعوا منهج رسول الله ﷺ وجدوه دائمًا يفسر القرآن بالقرآن، ويعين الناس على فهمه أدق فهم وأحسنه

---

[2] يقول ابن حجر في "فتح الباري" في خاتمة ما كتب عن كتاب التفسير للبخاري، اشتمل كتاب التفسير على خمسمائة حديث، وثمانية وأربعين حديثا من الأحاديث المرفوعة، وما في حكمها، الموصول من ذلك أربعمائة حديث، وخمسة وستون حديثا، والبقية معلقة وما في معناه، المكرر من ذلك فيه، وفيما مضى أربعمائة وثمانية وأربعون حديثا، الخالص منها مائة حديث، وفيه من الآثار عن الصحابة فمن بعدهم خمسمائة وثمانون أثرا، تقدم بعضها في بدء الخلق وغيره، وهي قليلة، وافقه مسلم على تخريج بعضها، ولم يخرج أكثرها؛ لكونها ليست ظاهرة في الرفع والكثير منها من تفاسير ابن عباس، انظر المجلد الثامن من فتح الباري، ص743.

وأصلحه بهاتين الوسيلتين، تعليمهم العمل به، ولفت أنظارهم إلى أنَّ بعضه يبين بعضه، وآياته يفسر كل منها الآيات الأخرى.

وحين اضطربت السبل في زماننا هذا، وتشتت الأمَّة، وفرّق الناس دينهم وصاروا شيعًا، ويئس كثيرون من إمكان إعادة بناء هذه الأمَّة ولمّ شملها والقضاء على فرقتها بكتب التفاسير ومناهج المفسيرين الموجودة التي توارثناها ، صار لابد من حسم هذا الأمر، وتقديم بيان شاف للناس حوله، فاخترنا منهج رسول الله ﷺ ألا وهو "تفسير القرآن بالقرآن"، وربط سلوك وعمل سيدنا رسول الله ﷺ بالقرآن المجيد؛ ليعلم الناس أنَّ رسول الله ﷺ كان يتلو على الناس الكتاب ويعلمهم العمل بآياته، وتطبيق ما جاء به، وتحويله إلى ممارسة حياتيَّة؛ ولذلك عدنا إلى إحياء ذلك المنهج النبويّ، وبذل كل الجهد والطاقة لبيان القرآن بالقرآن؛ لنحيي منهج رسول الله ﷺ، فنعلم الناس الكتاب بعد أن نتلوه عليهم حق التلاوة، ونزكيهم به، فذلك المنهج هو المنهج الذي بنيت هذه الأمَّة به، وعلى دعائمه قام عمرانها.

سائلين العلي القدير السداد والتوفيق في هذه المهمة الشاقة، راجين أن تتضافر جهود أهل العلم والمخلصين من أبناء هذه الأمَّة على إحياء هذا المنهج، ورد المسلمين إليه ردًا جميلًا، فهو وحده المنهج الكفيل بحماية المقاصد، وتحقيق الأهداف، وتمكين خلف هذه الأمَّة من سلوك ما كان عليه سلفها وجيل التلقي الخير من أبنائها، والله ولي التوفيق.

منهجنا في التفسير :

منهجنا في التفسير هو:"التدبُّر"، وتفسير بعض القرآن بالبعض الآخر.أي: تفسير مُحكمه بمفصّله. فالقرآن الكريم ينغلق وينفتح حسب الاستعداد الإنسانيّ وإقبال الإنسان عليه، وطهارة قوى وعيه.

والقرآن الكريم أراد فك الإنسان من إسار "الجبريَّة التاريخيَّة" ليكون القرآن المجيد منهجًا رائدًا، يقود الإنسان في عمليَّة "الاستخلاف" بكل متطلَّباتها ونماذجها وخطواتها. فالقرآن دليل استخلاف وقاموس عمران وقيم.

و"المنهجيَّة القرآنيَّة" استطاعت إنشاء "أمَّة الكتاب"، وأعطت للإنسان ما كان بحاجة إليه في سائر جوانب حياته.

والتدبُّر هو التفكر فيما وراء الظواهر، ومعرفة أدبار الأمور، وعواقبها، وما لا تراه العين للوهلة الأولى منها، فالقرآن خطاب مفتاحه التدبَّر أي أن يقبل القارئ المؤهّل الذي هيّأ قوى وعيه ووسائل إدراكه لتدبُّر القرآن الكريم بعقل علميّ لديه من المعرفة والاستعدادات ما يعينه على تدبُّر هذا الخطاب، ومعرفة المراد به.

إنَّ "المتدبِّر" قد تلقَّى خطابًا في قول ثقيل متحد معجز ذي مواصفات خاصَّة لا يشاركه فيها أي خطاب آخر، وله مضمون ورسالة وهدف ومقاصد وغايات وعواقب. وهو خطاب صاغه مخاطِب يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. وقد فصَّله على علمه المحيط بكل شئ، فهو علم مطلق منزَّل من لدن العليم الخبير، الذي أحاط بكل شيء علمًا، فلا يتوقع من المتدبِّر أن ينشغل بكل تلك التفاصيل التي قد ينشغل بها المتعاملون مع الخطاب البشريّ أيًا كان.

وقد سبق أن نبَّهنا إلى أنَّ القرآن قد استوعب ثنائيَّة "الواقع والمثال"، وتجاوزها، ولتوضيح مرادنا بالواقع والمثال نقول: إن الله (سبحانه وتعالى) حين أمر بأمور وفرض فرائض، وكلف الناس بها لم يكن غائبا عن علمه المحيط الشامل طاقات الانسان وقدراته، وتأثير علاقاته بالزمان والمكان في كثير من شئونه وشجونه. ولذلك نجد في كثير من التكاليف مستويات متعددة، فهناك مستوى عال وهو المستوى الأول ، كأن الله (عزّ وجلّ) جعله المستوى الذي على الإنسان أن يحاول أن يصل إليه وهو يؤدي ما كلفه الله به وقد تقصر طاقاته دونه. وهناك مستوى ثان أقل، ومستوى ثالث أقل منه ، وقد لوحظت أحوالهم جميعًا في هذا الخطاب القرآنيّ؛ ولذلك قيل: "حسنات الأبرار سيئات المقربين". فالصلاة على سبيل المثال، مستواها الأعلى أن تؤدى في وقتها بخشوع تام وقنوت وإخبات لله (عزّ وجلّ)، مع إسباغ الوضوء، والطمانينة في كل حركة وسكنة، وعدم الغفلة عن الله في أيّة لحظة من لحظاتها، وذلك شأن المقربين وتلك صلاة النبيين، ومستوى آخر دون ذلك. فالمستوى الأول لا يطيقه إلا ذلك الصنف الذي هيئه الله لإقامة الصلاة، أما المستويان الثاني والثالث فهما في متناول الكثيرين من عباد الله. ولكن ينبغي لهؤلاء أن يبذلوا جهدهم، ويحاولوا ما استطاعوا أن يبلغوا المستوى الأول ويصلوا إليه. والمستوى الأول هو الذي يحقق مقاصد الخالق من

الخلق، ويحقق في الحكم أهدافه ومقاصده بشكل كامل، وفي ذلك يقول "ابن الفارض" في تائيَّته:

فلو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهواً قضيت بردتي

فكأن المستوى الأول، هو مستوى المثال، الذي يضعه الله تبارك وتعالى لنا لنحاول بلوغه والوصول إليه، وأما المستويان الثاني والثالث، فمستويان يستطيع الإنسان العادى بلوغ أي منهما بشيء من التركيز، وبذلك يمكن أن يقرب فهم الفارق بين الواقع والمثال في هذا المجال.

إنّ القرآن الكريم خطاب يمكن أن ينزل على القلب مباشرة فيشتبك مع قوى وعي السامع والمخاطب بشكلٍ مباشر، ووعي القارئ المخاطب هو الذي سيستقبله. وحين يبدأ وعي القارئ بالتفاعل معه للكشف عمَّا بين يديه وما خلفه سوف يفرض هذا الخطاب القرآنيّ المتعالي المتنزِّل على ذهن المتلقي تساؤلات كثيرة تختلف تمامًا عن التساؤلات التي يثيرها أي خطاب آخر.

ولعلَّ أهم الاختلافات بين ما يثيره الخطاب القرآنيّ وأيّ خطاب آخر غير الخطاب القرآني، ما قد يثار من تساؤلات حول ما في ذهن مرسِل الخطاب من مقاصد وغايات أو مطامع يطمع أن يطلب المرسِل إلى المرسَل إليه القيام بها.

في حين أن المخاطب – بالخطاب القرآنيّ– يتَّجه للبحث عن دور له في ذلك الخطاب يُعمِل فيه ذهنه وخياله، ويمارس فيه نشاطه الإنسانيّ.

إنَّ المتلقِّي الأول للقرآن المجيد ﷺ قام بتمثيل القرآن واتِّباع كلّ ما جاء فيه حتى صار ﷺ وكأنَّه نسخة بشريَّة للقرآن المجيد، فكان خلقه القرآن، وسلوكه القرآن، وتصرفاته – كلّها – اتِّباع للقرآن، [3]وبذلك رسم "منهج الإتِّباع" بدقَّة لا مزيد عليها ليتمكَّن الخلق من التأسّي به ﷺ .

---

[3] عن سَعْدِ بن هِشَامِ بن عَامِرٍ قال: (أَتَيْتُ عَائِشَةَ فقلت يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أخبريني بِخُلُقِ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قالت كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ عز وجل (وَإِنَّكَ لعلي خُلُقٍ عَظِيمٍ) قلت فإني أُرِيدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ قالت لاَ تَفْعَلْ أَمَا تَقْرَأُ (لقد كان لَكُمْ في رسول اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فَقَدْ تَزَوَّجَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وقد وُلِدَ له) مسند أحمد بن حنبل ج6:ص24645/91

ولكن المتأسِّين به مهما اجتهدوا فإنَّهم لن يبلغوا مستوى الإتِّباع الدقيق السليم إلا إذا حالفهم التوفيق الإلهيّ؛ ولذلك فإنَّ المؤمنين يعملون على أن يحوِّلوا واقعهم إلى واقع تتجلَّى فيه أنوار القرآن وهدايته، لتُشاهد التحوّلات التي أحدثها القرآن ويحدثها في بيئاتهم التي سوف تساعد مع المجتمع على إبراز كيانات اجتماعيَّة تهتدي بهداية القرآن، وتستظلّ بأنواره – وآنذاك – تتشكل شخصيَّة ذلك المجتمع في هيكل مؤطّر بمجموعة العلاقات الاجتماعيَّة المتغيِّرة المتحرِّكة في إطار "المرجعيَّة القرآنيَّة وقيمها الحاكمة".

وهنا يكون نصيب كل فرد في ذلك المجتمع مماثلًا لنصيب الأراضي المتنوّعة من الغيث، فهناك أرض تهتزّ وتربو وتنبت من كل زوجٍ بهيج ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**فصلت:39**)، وهناك أراض تحتفظ بالماء ليستفيد به الإنسان والحيوان والنبات، وهناك أراض أجادب لا تنبت زرعًا ولا تمسك ماءً وهناك وهناك.[4]

وهنا يأتي دور "التدبُّر"؛ فالتدبُّر ضروريٌّ ليقوم بقيادة القارئ للتّفاعل مع الخطاب القرآنيّ، ومعرفة دوره بالنِّسبة إليه. "فالتدبُّر" يقود القارئ إلى التّفاعل مع الخطاب. وهنا يجد القارئ نفسه وجهًا لوجه في مواجهة الخطاب فيستدعي التاريخ وآفاق الفهم، ويؤسس للعلاقة مع الخطاب. إنَّ "التدبُّر" يجعل القارئ يبحث عن المعنى الذي ينشأ نتيجة تفاعله مع الخطاب لا عن المعنى "الكامن أو المكنون" فيصبح المعنى –آنذاك–"أثرًا" تمكن ممارسته لا "موضوعًا" يمكن تحديده.

إنَّ من شأن تدبّر القرآن – بإذن الله – وتفسير القرآن بالقرآن، وتلاوة القرآن حق التلاوة، وحسن ترتيله وإقامة الصلاة به، تحقيق كل تلك النتائج المبتغاة التي تجعل القرآن شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة وموعظة ونورا وبصائر، لا تشحذ أسماع المتدبرين فحسب

---

[4] عن أبي مُوسَى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال" مَثَلُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ من الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ منها أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ الله بها الناس فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ منها طَائِفَةً أُخْرَى إنما هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ من فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ من لم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ولم يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ » صحيح البخاري كتاب العلم بَاب فَضْلِ من عَلِمَ وَعَلَّمَ ج1:ص79/42

بل تمنحها قدرة التمييز، قال (عزّ وجلّ): ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ (الزمر:18).

وعند ذلك لا يمكن للشيطان أن يقيم حجبًا بين حكم القرآن وأنواره وبين قوى الوعي الإنسانيّ؛ لذلك فإنَّ التدبُّر ضرورة لبناء العقل وإنماء قوى الوعي قرآنيًا، فهو الذي يهيئ الإنسان وقواه العاقلة لتلك المهام العظيمة التي تنتظر الإنسان في هذه الحياة: مهام تحقيق التوحيد والتدثُّر بالتزكية، والتحلي بالعمران، وإقامة بناء الأمَّة، وحسن القيام بالدعوة، وبدون ذلك تكون القراءة هذرمة، ويكون الاستماع قليل الأثر.

نرجو الله أن يوفقنا لحسن تدبُّر كتابه، ليكون القرآن ربيع قلوبنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، ونور بصائرنا وأبصارنا، إنَّه سميع مجيب.

«سورة الروم»[5]

نزولها: مكيَّة.

عدد آياتها: ستون آية.

عدد كلماتها: ثمانمائة وسبع.

عدد حروفها: ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون.[6]

عمود السورة:

هذه السورة عمودها الأساس عرض اليوم الآخر والإيمان به، وأهميَّة ذلك الإيمان على جميع المستويات، على المستوى الفرديِّ، وعلى مستوى الشعوب والأمم، وعلى المستوى العالميِّ. فكأنَّها تضع موضوع الإيمان باليوم الآخر خارج دائرة قريش والدائرة العربيَّة الضيقة، وتقدمه مصحوبًا بأدلته الكونيَّة والعقليَّة، في إطار الخطاب القرآنيِّ العالميِّ، الموجه إلى البشريَّة كافَّة إلى يوم الدين.

إنَّ هذه السورة من بدايتها إلى نهايتها، تبين بجلاء ووضوح عالميَّة الخطاب القرآنيّ[7] وأنَّه خطاب موجه إلى العالم كلِّه، لا يقتصر على قوم دون قوم، أو على شعب دون شعب،

---

[5] قال الإمام الواحدي رحمه الله تعالى: (الروم هم جيل من ولد روم بن عيصو بن إسحاق غلب اسم أبيهم عليهم فصار كالاسم للقبيلة) تهذيب الاسماء 123/3.

ولكن العرب يطلقون كلمة الروم على كل أولئك الذين سكنوا أوروبا أو من أطلقنا عليهم الفرنجة، ويبدو أنَّ العرب قد تداولوا هذا المصطلح عندما كان الروم يحتلون بلاد الشام ويستخدمون العرب الغساسنة لمد نفوذهم وبسط سلطانهم على عرب الجزيرة الأخرين. وإذا أطلق مؤرخونا عليهم في الحروب الصليبيَّة الفرنجة فإنَّ استعمال كلمة الشرق والغرب والمسألة الشرقيَّة والمسألة الغربيَّة قد تزامنت مع ظهور الدولة العثمانيَّة، وصارت كلمة الغرب إذا أطلقت يريدون بها ما كانوا يريدون بالروم قديمًا أو الفرنجة في أثناء الحروب الصليبيَّة، أو من كان يطلق عليهم جنس بني الأصفر سموا بذلك باسم جدهم الأصفر بن روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. المصباح المضيئ 78/2

[6] عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن (القاهرة: دار الفكر العربي)، ج 11، ص472.

[7] عالميَّة الخطاب القرآني هو محدد منهاجي من محددات المنهاج القرآني، بحثنا دلالاته وما ينطوي عليه في العديد من دراساتنا ومحاضراتنا، فهو يخالف الخطابات المنحصرة في قوم أو عائلة أو أهل بيت كما في رسالات سابقة، وهو يستلزم عدة أمور لابد من الوعي بها،وكلها تعد في إطار المنهاج القرآني، أو في إطار لوازمه مثل ختم النبوة وحاكميَّة الكتاب وكونها شريعة تخفيف ورحمة تعتمد في دعائمها وأساسيَّاتها على قواعد مشتركة وقيم عامَّة بين البشر وسنزيد في توضيح هذا المحدد المنهاجي فيما سيأتي إن شاء الله.

أو على أمَّة دون أمَّة، فالعالم كلُّه- بِكُلِّ ما فيه ومن فيه- مخاطب بهذا الكتاب، ومشمول بدلالاته ومعانيه، والمضمون الذي حمله، وتكاد السورة تكون دليلًا تدريبيًّا لأبناء الأُمَّة الوسط؛ لكي يهتموا بشئون العالم كلِّه؛ إذ إن أمَّتهم ستحتل موقع الشهادة والوسطيَّة والخيريَّة بين الناس، بحكم كونها الحاضن الأول للرسالة الخاتمة والأُنموذج الأول، الذي صاغه هذا الكتابُ، ورسم جميعَ معالمه هذا الخطابُ، وسوف تشهد هذه الأُمَّة على الأخرين إذا حافظت على موقعها، وكانت للعالم مثالًا في تبني الخطاب، وبناء الأُمَّة وَفْقًا لهدايته، وبَنَت جميع نُظُمها ومنظومة حياتها، بِكُلِّ تفصيلاتها الدقيقة والجليلة على بصائره وهدايته وأنواره. كما أنَّ هذه البداية التي بدأت السورة بها فيها براعة استهلال؛ إذ إنها تنبه الأُمَّة الوسط الشاهدة الخيِّرة لأن تتعلم وتعليَ من شأن العلم، وتبنيَ دعائمها – وهي ما تزال في طور بناء النواة الأولى للأمَّة في العهد المكيِّ – على القرآن وعلى العلم ، ،كما أنَّ في هذه البداية تنبيهًا للإعداد للمستقبل انطلاقًا من دروس الحاضر، وفي ذلك إيحاء أَيضًا بالتأسيس والإعداد لبناء قواعد علم التدبير والتخطيط المستقبلي، لا على مستوى أقاليمها وحدها، بل على مستوى العالم كلِّه، فكأنَّ السورة تقول لنواة الأُمَّة المؤمنة في مكة- وهي ما تزال في طور التكوين- لا بد لك من معرفة دورك كاملًا على مستوى العالمِ كُلِّه والأرضِ كلِّها، وإعداد نفسك لهذه اللحظة، فأنتِ أمَّة مسئولة – بالشهادة والحضور – عن إصلاح العالم، فعليك أيتها الأُمَّة الشاهدة إصلاح الحاضر وتهيئة التدابير اللازمة لئلا يحدث أي انحراف في المستقبل، وذلك يعني أنَّ هذه الأُمَّة مسئولة عن مراقبة مسيرة الحقّ والباطل على الأرضِ كلِّها، والانتصارِ للحق دائمًا، وعدمِ السماح بانتكاسته وظهور الباطل في أيَّة بقعة من بقاع الأرض؛ فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والأرض ينبغي أن يرثها عبادُ الله الصالحون، وإِذَا حدث أن غَفَلَ الصالحون المتقون واستبدَّ بأمر الأرض الفاسدون والمفسدون، فلا ينبغي أن يكون ذلك إِلَّا أمرًا مؤقتًا، لا ينبغي أن تسمح الأُمَّة الشاهدة أن يدوم، ولا أن يستمر طويلًا، والا فإنَّ الأُمَّة الشاهدة سوف تسقط في جريمة الغياب، وعدم الحضور لأداء الواجب.

فالسورة مَلْئى بِكُلِّ ما من شَأْنُه إعداد جميع أبناء الأُمَّة المسلمة؛ لإدراك البعد العالميِّ في هذه الرسالة، وجعل الإحساس بالمسئوليَّة عن العالم كلِّه، والبشريَّة كلِّها جُزءًا من عقيدة الأمة، وأنَّها كلَّها لأب واحد هو آدمُ، وآدمُ من تراب، ووَحْدة الأرض يجب أن تكون موروثة للصالحين لا للفاسدين من أبناء آدم، الذين قضى الله -جَلَّ شَأْنُه- أَلَّا ينالوا عهده في إطار سنن التدافع، ولا يمكّنوا بشيء من ذلك؛ لأنَّهم إذا تمكّنوا أهلكوا الحرث والنسل، وأفسدوا في الأرض، والله لا يحب الفساد. وليس للظالمين أن يستبدوا بأي جزء من أجزاء الأرض قد يَدَّعُون أنَّها ملكهم، وأنَّهم أحرار فيها؛ فالأرض كلُّها بيت مُوَحَّد للأسرة الإنسانيَّة الممتدة يرثها عبادُ الله الصالحون.

قصة الرهان:

لقد شَغَلَ جمهرةُ المفسرين قديمًا وحديثًا أنفسَهُم بقضيَّة الرهان، بين أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وأمية بن خلف والحديث الذي ورد في تلك المناسبة،[8]

والحقيقة أنَّ ذكر هذه الواقعة بين الروم والفرس، وتعليق القرآن الكريم عليها ينبهنا إلى أنَّ التدافع بيننا وبين الروم أو الغرب سوف يكون طويلًا ومستمرًّا، كالتدافع بيننا وبين بني إسرائيل. لكنَّ هناك اختلافًا كبيرًا بين تدافعنا مع بني إسرائيل وتدافعنا مع الروم، ففي هذه

---

[8] القصة كما ذكرها عُرْوَة بن الزُّبَيْرِ عن نِيَارِ بن مُكْرَمٍ الْأَسْلَمِيِّ قال لَمَّا نَزَلَتْ (الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأرض وَهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ) فَكَانَتْ فَارِسُ يوم نَزَلَتْ هذه الْآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ وكان الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عليهم لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وفي ذلك قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ من يَشَاءُ وهو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فكانت قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ ولا إِيمَانٍ بِبَعْثٍ فلما أَنْزَلَ الله تَعَالَى هذه الْآيَةَ خَرَجَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَصِيحُ في نَوَاحِي مَكَّةَ (الم غُلِبَتْ الرُّومُ في أَدْنَى الأرض وَهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ) قال نَاسٌ من قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صاحبكم أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فارسا في بِضْعِ سِنِينَ أَفَلَا نُرَاهِنُكَ على ذلك قال بَلَى وَذَلِكَ قبل تَحْرِيمِ الرِّهَانِ فَارْتَهَنَ أبو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ كَمْ تَجْعَلُ الْبِضْعُ ثَلَاثُ سِنِينَ إلى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِي إليه قال فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ قال فَمَضَتْ السِّتُّ سِنِينَ قبل أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أبي بَكْرٍ فلما دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتْ الرُّومُ على فَارِسَ فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ على أبي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قال في بِضْعِ سِنِينَ قال وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذلك نَاسٌ كَثِيرٌ"سنن الترمذي كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عن رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَاب وَمِنْ سُورَةِ الرُّومِ 5/344/ 3194 وقال : هذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ من حديث نِيَارِ بن مُكْرَمٍ لَا نَعْرِفُهُ إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزِّنَادِ .

السورة إشارات كثيرة إلى العِلْم وإلى الفرق بين العِلْم كما ينبغي أن يكون عندنا، وبين العِلْم كما هو عند الأخرين وبخاصَّة الرومُ، فهل سيكون صراعنا معهم – وقد بلغوا ما بلغوه من العِلْم– صراعًا علميًّا معرفيًّا، يكون العِلْمُ أهمَّ أدواته، بحيث يدخل العِلْمُ فيه بوصفه سلاحًا فعالًا وأساسًا ؟ كما يوجد في هذه السورة توجيهًا خفيًّا وظاهرًا للأمَّة المسلمة؛ لتأخذ بِكُلِّ أسباب العلم وشتى أنواعه؛ فتكون قد استوعبت ما وصلت إليه الأمم الأخرى من الأسباب المادية والدنيوية ، وانفردت عن سواها بربط ذلك بالآخرة، فتكون قادرة على تحقيق النصر على أولئك الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا،وهم عن الآخرة هم غافلون.

إن المفروض على أبناء الأُمَّة الشاهدة أن يكونوا على علم واسع شامل، لا ينحصر في ظواهر الحياة وقشورها، فذلك أمر مفروغ منه، يستطيعونه هم كما يستطيعه غيرهم، ولكن المفروض أن يكونوا على علم بحقائق الأشياء ودخائلها ومآلاتها، وربطها بمقاصد القرآن وآياته، والتزود للدار الآخرة؛ لأنَّهم قوم لا يغفلون عن فعل الله في الكون، وغيرهم لا يفقهون هذا فيقتصرون في علومهم على ظاهرٍ من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

مستقبل الصراع بين الروم الكتابيين والفرس الوثنيين

إنَّ حديث السورة عن مستقبل الصراع بين النصارى من أهل الكتاب أو الروم وبين الوثنيين الفرس فيه إشارة إلى صلات القرابة واتفاق الأهداف بين الكتابيين جميعًا بمن فيهم الأُمَّة التي حملت القرآن، فقد صارت أمَّة كتابيَّة، تحمل كتابًا مصدقًا لما بين يديه، ومهيمنًا عليه، وأنَّ هذه الصلات تجعل الكتابيين مطالَبين بالوفاء بالعهود التي أُخذَت عليهم قبل بعثة محمد –صلى الله عليه وآله وسلّم– بأن يؤمنوا بهذا النبي والكتاب الذي حمله،وفي الوقت نفسه تُوجِّه نظر الأُمَّة صَوْب فقه المآلات، فهي أمور ليس لمؤمن أن يغفل عنها، أو ينساها، أو يتجاهلها في كلِّ الشئون.

لقد كان العرب قبل البعثة منقسمين إلى غساسنة تحت حكم الروم،وإلى مناذرة تحت حكم الفرس، فحينما تتحارب الدولتان فإنَّ هناك عربًا في جيش كلٍّ منهما يتحاربون ويتأثرون بالنصر والهزيمة التي تصيب أيًّا منهما. صحيح أنَّ عربَ الجزيرة العربية بما فيهم قريش كانوا فيما يشبه الاستقلال إذا تجاوزنا عن ضغوط الحاكمين في اليمن والفرس والروم، لكنَّهم

يتأثرون بالقتال الذي يحدث بين هذه الدول التي كانت تعد دولًا عظمى في التاريخ القديم. فلا غرابة أن يكون هذا الاهتمام لديهم، وأن يشير القرآن المجيد إليه، ويواكب الحدث. أمَّا قوله –جَلَّ شَأْنُه–: ﴿.. **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ (**الروم:4–5**) فإنَّ من غير المقبول أن يفرح المؤمنون بنصرٍ مهما يقال فيه فإنه لكتابيين على وثنيين، فكيف يقرر القرآن المجيد فرح المؤمنين بهذه الطريقة،هل لمجرد كون الكتابيين كتابيين ؟ وإن حرَّفوا وبدَّلوا وخالفوا كتب النبيين والمرسلين، بل وكَذَّبوا من كَذَّبوا وقتلوا من قتلوا. إنَّ المتدبر يجد في الآية حذفًا ينطوي مكنونها عليه، تقديره "كذلك أنتم أيُّهَا العرب المسلمون ستقاتلون الروم والفرس وستنتصرون على الاثنين، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الفرح الحقيقي"، فتكون الآية في منطوقها قد رحبت بالفرح بانتصار الحليف، وفي مكنونها نبهت لرؤية مستقبليَّة أنَّ هذه القوى لَنْ تترك المؤمنين يؤسسون قاعدتهم في جزيرة العرب ثم ينطلقون منها آمنين يحملون هذا القرآن، ويَدْعون الناس إلى الإيمان بالله، والاستجابة له وللرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– وأنَّكم ستقاتلونهم جميعًا بقطع النظر عمن سوف ينشئ الحرب ضدكم، وستنتصرون عليهم، فيومئذ يفرح المؤمنون بالنصر الحقيقي لله –جَلَّ شَأْنُه– الذي ينتصر فيه أهل الإيمان على أهل الشرك بِكُلِّ أنواعه "وهذا ما حدث بعد فتح الشام والعراق وتدمير الدولتين والانتهاء من القوتين العظميين؛ لتظهر القوة الثالثة الخيِّرة الشاهدة الوسط. وقد يعزز ما ذهبنا إليه ما قاله ابن عطية في المحرر الوجيز:" وقوله – تعالى– (يومئذ) يحتمل أن يكون عطفًا على "القبل" و"البعد"،كأنَّه حصر الأزمنة الثلاثة الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الأخبار بفرح المؤمنين بالنصر".

وأشار ابن عطية بعد ذلك إلى أنَّه فرح بانتصار الحليف المؤقت وبتصديق ما جاء القرآن به من الوعد بالغلبة في بضع سنين، أو أن يكون الفرح بنصر يخص المسلمين على عدوهم والذي حدث إما يوم بدر أو بيعة الرضوان، ولا مانع أن يكون ذلك مرادًا ومعه في الوقت نفسه انتصار المسلمين على دولتي فارس والروم معًا فيما بعد، وهو ما ينبه له قوله –جَلَّ شَأْنُه–: ﴿.. **لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ** ..﴾ (**الروم:4**).

فما أروعَ الدروسَ الكثيرة جدًّا التي يمكن أخذها من هذه السورة الكريمة خاصَّة في هذه الظروف التي تتداعى فيها الأممُ علينا كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وتسود الهزيمة

النفسيَّة تجاه القوى الخارجيَّة. إنَّ هذه السورة تمثل هاديًا ودليلًا مثل باقي آيات الكتاب الكريم؛لإخراج المسلمين من ضغط الواقع السيِّئ الذي تمزقت فيه وَحْدَتها، ودالت دولتها، وتشتت شملها، وأصبحت خيراتها ومواردها نهبًا لخصومها وأعدائها، وكل ذلك في الحقيقة راجع إلى تنكبها الصراط السوي، وعدم اهتدائها بالكتاب الكريم، وقراءته قراءة حمارية مثل قراءة بني إسرائيل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لَمْ يحملوها، فكان مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارًا، وكلّ ما نشاهده يدمي القلب ويفتتُه، ويكاد يُذهب عقلَ اللبيب ولُبَّه، فمتى تعود هذه الأُمَّة إلى هذا الكتاب؛ ليستقيم أمرها وتخرج من تيهها وضياعها الذي زاد أضعافًا مضاعفة عن تيه بني إسرائيل الذي استمرَّ أربعين سنة؟! نسأل الله –جَلَّ شَأْنُه– أن يهيِّئ لهذ الأُمَّة أمر رشد، ويردّها إلى موقعها الصحيح بلطفه وعنايته، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ولعل الحديث الذي رواه الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يزيد في وضوح ما نحن فيه، قال المستورد: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وآله وسلم– يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ». فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: «أَبْصِرْ مَا تَقُولُ». قَالَ: «أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وآله وسلم–». قَالَ: «لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ أن فِيهِمْ لَخِصَالا أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وضعيّفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»9.

فلعل في هذا الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره ما يشير إلى نقاط القوة التي تجعل الروم (أو الغرب كما نسميه اليوم) قادرين على البقاء والاستمرار بالأخذ بمسالك القوة، وكذلك الحديث الآخر، الذي روي وكأنَّه في إطار القراءة لمستقبل الصراع الإسلاميِّ الفارسيِّ الروميِّ في العالم القديم، "عن ابن محيريز قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعدها أبدا والروم ذات القرون كلما هلك قرن خلف مكانه قرن أهل صخر وأهل بحر هيهات لآخر الدهر هم أصحابكم ما كان في العيش خير "[10].

---

9 صحيح مسلم كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ بَاب تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ الناس 4/ 2898/2222

[10] مسند الحارث (زوائدالهيثمي) كتاب المغازي باب قتال فارس والروم 702/713/2.

قال المناوي: يريد أن فارس تقاتل المسلمين مرة أو مرتين ثم يبطل ملكها ويزول فحذف الفعل لبيان معناه ، ويريد "بأصحابكم "إن فيهم السلطنة والإمارة على العرب ، والحديث إسناده ضعيف . التيسير بشرح الجامع الصغير 166/2

إنَّ القرآن لَمْ يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد، ولا في حدود ذلك الحادث، بل جعل من ذلك مناسبة؛ لينطلق منها بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع، من ذلك الحادث الموقوت والرهان عليه؛ وليصلهم بالكون كلِّه؛ وليربط بين سنَّة الله في نصر الإيمان وأهله، والحقّ الكبير الذي قامت عليه السموات والأرض وما بينهما؛ وليصل بين ماضي البشريَّة وحاضرها ومستقبلها. ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا، وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود. ثم يطوف بهم في مشاهد الكون، وفي أغوار النفس، وفي أحوال البشر، وفي عجائب الفطر. فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم الرحب، يطلعون على آفاق من المعرفة، ترفع حياتهم وتطلقها، وتوسع آفاقها، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة: عزلة المكان والزمان والحادث، والانحصار في عمليَّات الاستقطاب بين الروم والفرس (الدولتين العظميين في ذلك العصر) إلى فسحة الكون كلِّه: ماضيه وحاضره ومستقبله، وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه.

ومن ثَمَّ يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات، وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير. ويشعرون بضخامة النواميس التي تحكم هذا الكون، وتحكم فطرة البشر؛ ودقة السنن التي تصرف حياة الناس وأحداث الحياة، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة؛ وعدالة الموازين التي تقدر بها أعمال الخلق، ويُقوَّم بها نشاطُهم في هذه الأرض، ويَلقون على أساسها الجزاء في الدنيا والآخرة.

وفي ظل ذلك التصور المرتفع الواسع الشامل تتكشف "عالميَّة الخطاب القرآنيِّ" وارتباطه بأوضاع العالم كُلِّه من حوله بقاعدة بناء الأُمَّة الشاهدة الوسط حتى وهي ناشئة في مكة محصورة بين شعابها وجبالها، وإنَّها اشارة إلى تلك النواة أنَّها سيتسع مجالها فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحدَها، بل تكون مرتبطة كذلك بفطرة هذا الكون ونواميسه الكبرى، وفطرة النفس البشريَّة وأطوارها، وماضي هذه البشريَّة ومستقبلها. لا على هذه الأرض وحدَها، ولكن كذلك في العالم الآخر الوثيق الصلة بها والارتباط.

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد؛ ويتكيَّف على ضوئها شُعورُهُ وتصورُهُ للحياة والقيم؛ ويتطلع إلى السماء والآخرة؛ ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار، وخلفه وقدامه على الحوادث والمصائر، ويدرك موقفه هو وموقف أمَّته في ذلك الخضم الهائل؛

ويعرف قيمته هو، وقيمة ايمانه في حساب الناس وحساب الله؛ فيؤدي حينئذ دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام.

ويمضي سياق السورة في عرض تلك الارتباطات، وتحقيق دلالاتها في نظام الكون، وتثبيت مدلولاتها في القلوب، يمضي سياق السورة في قسمين مترابطين:

في القسم الأول يربط نصر المؤمنين بالحق، الذي تقوم عليه السموات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمرُ الدنيا والآخرة. ويوجه قلوبهم إلى سنَّة الله فيمن مضى قبلهم من القرون، ويستدل به على قضيَّة البعث والإعادة، ومن ثَمَّ يعرض عليهم مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، وما يجري فيه للمؤمنين والكافرين، ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الكون، وآيات الله المبثوثة في تضاعيفه؛ ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب، ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلًا يكشف سخافة فكرة الشرك، وقيامها على الأهواء التي لا تستند إلى حق أو علم؛ وينتهي هذا الشوط بتوجيه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى اتباع طريق الحقّ الواحد الثابت الواضح، طريق الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ والتي لا تتبدل ولا تدور مع الهوى؛ ولا يتفرق متَّبعوها فرقًا وشيعًا، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى ففرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

وفي القسم الثاني يكشف عمَّا في طبيعة الناس من تقلّب لا يصلح أن تقام عليه الحياة، ما لَمْ يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء، ويصوّر حالهم في النعماء والضراء، وعند بسط الرزق وقبضه. ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته. ويعود إلى قضيَّة الشرك والشركاء، فيعرضها من هذه الزاوية؛ فإذا هم لا يَرزُقون ولا يُميتون ولا يُحيون. ويربط بين ظهور الفساد في البر والبحر وعمل الناس وكسبهم؛ ويوجههم إلى السير في الأرض، والنظر في عواقب المشركين من قبل. ومن ثَمَّ يوجه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الاستقامة على دين الفطرة، من قبل أن يأتي اليوم الذي يجزى فيه كلّ إنسان بما كسبت يداه. ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله في مشاهد الكون، كما عاد بهم في القسم الأول. ويعقب عليها بأنَّ الهدى هدى الله، وأنَّ الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يملك إلَّا البلاغ، فهو لا يَهدي العمي ولا يُسمع الصم. ثم يطوف بهم في جولة جديدة في ذوات أنفسهم، ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى

الموت والبعث والقيامة، ويعرض عليهم مشهدًا من مشاهدها. ثم ينهي هذا القسم ويختم معه السورة بتوجيه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الصبر على دعوته، وما يلقاه من الناس فيها؛ والاطمئنان إلى أنَّ وعد الله حق لابُدَّ آتٍ؛ فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون."[11]

والسورة بعد ذلك أُنموذج للسور، التي جمع القرآن فيها بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الوجود، وهي أُنموذج متميز لقراءة الجمع بين القراءتين، فهي تجول في الإنسان جَوْلات سريعة متعمقة في جوانب الكون وفى جوانب الوحي، وفي مقدور الإنسان القارئ الجيد أن يلحظ منهجها في الجمع بين القراءتين في جميع آياتها.

وفي السورة دروس وعبر لكل أولئك الذين أسلموا وآمنوا، ولكنهم لَمْ يخلصوا الإسلام والإيمان لله -جَلَّ شَأنُه-، بل شاب إيمانَهم وإسلامَهم شركٌ كبير وظلم عظيم؛مثل الذين يقولون: إنَّ جميع أوراق القضيَّة الفلانيَّة أو غيرها من قضايا الأُمَّة المسلمة بأيدي الجهات الفلانيَّة، وينسون الله -جَلَّ شَأْنُه- الذي منه النصر كلّه، وأنَّه ينصر من يشاء، وأنَّه يعِد أناسًا بالنصر؛ لاستكمالهم وسائلَه وأدواته؛ فينصرهم -جَلَّ شَأْنُه- عندما يقدِّر ذلك ووفق موعد لا يخلفه-جَلَّ شَأْنُه- فالمؤمن الحقّ لا يكون مؤمنا حَقًّا ولا يكون خالص الإيمان لله -جَلَّ شَأْنُه- إلا حين يؤمن بأنَّ الله -جَلَّ شَأْنُه- وَحْدَه مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كلّ شيءٍ قدير ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**آل عمران:26**)، وأنَّه وَحْدَه الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وأنَّ انتصار من ينتصر وخذلان من يُخذَل، ذلك كُلُّه راجع إليه -سبحانه وتعالى، لا إلى أحد لا يؤمن إيمانًا يقينيًّا ثَابتًا بهذه الحقيقة.

والسورة أعلنت هزيمة الروم، وأعلنت أنَّهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين؛ لتشير إلى التغيير الذي سيحدثه الروم في أنفسهم ونظامهم وتسليحهم وتدريبهم الذي سيؤمن لهم النصر في بضع سنين؛ بإذنه -سبحانه وتعالى-، ووفقًا للسنن والقوانين التي

[11] سيد قطب. في ظلال القرآن (القاهرة: دار الشروق، 2005) ج5 ص 2755-56

أودعها في هذا الكون، لأنَّ له -جَلَّ شَأْنُه- الأَمرَ من قبل ومن بعد؛ فمتى يراجع المسلمون أنفسهم؟ ومتى يستردون إيمانهم الذي ذهب الشرك بنصيب وافر منه؟ فأشركوا بالله ما لَمْ ينزل به سلطانًا، من قوى عظمى ودنيا ومنظمات دوليَّة وإقليمية وسواها، وهم الذين علمهم رسول الله -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، كيف يعتمدون عليه -سبحانه، ويكلون الأمور كلَّها إليه، ويعرفون سننه وقوانينه في التداول والتدافع، وكيفيَّة تسخير الله -جَلَّ شَأنُه- لتلك السنن والقوانين، لمن آمن من عباده، وأخلص في إيمانه واستقام في سلوكه، وصار عبدًا لله -جَلَّ شَأنُه، لا يتصرف إلَّا من أجله وطلبًا لرضاه ومثوبته؛ ولذلك فإنَّ "جيل التلقي" لَمْ يكن ينظر إلى نفسه إلَّا أنَّه جيل ابتعث الله نبيًّا ورسولًا له، يبلغه آياته ويتلوها عليه، ويعلمه الكتاب والحكمة ويزكيه بها، ثم ينقل ذلك كلَّه إلى الذين يستجيبون لله وله؛ ليكوِّن منهم الأُمَّة، ولذلك كانوا يقولون: إن الله ابتعثنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وَحْدَه، ومن جَوْر الأَديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كان كلّ همهم أن يخلصوا لله إيمانهم، وأن تخبت له قلوبهم، وأن يعلموا أنَّهم جند الله، وما يعلم جنود ربك إلَّا هو، فهم جند الله من البشر، ينضمون إلى جنود الله الأخرى التي لا يعلمها إلَّا الله -جَلَّ شَأنُه- ومنها السنن الكونيَّة والطبيعيَّة والاجتماعيَّة والموازين المختلفة .وإذَا قصَّرت جهود البشر من المؤمنين المخلصين فإنَّ لله جنودًا آخرين يشدون أزرهم ويبشرونهم بالنصر، كما أنَّ لله سننًا تثبت أقدام قوم، وتزلزل أقدام آخرين دون إخلال بالأسباب التي لا بُدَّ منها، والتي أمر الله -جَلَّ شَأْنُه- بالعناية بها من إعداد العُدَدِ وتهيئتها، وعدم التهاون في شيء منها.

نجوم السورة: [12]

(الآيات من 1 حتى 7):

قوله تعالى: ﴿**الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأرضِ**[13] **وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ**[14] **سِنِينَ لِلَّهِ الأَمرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ**[15] **لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**[16] **وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾ (**الروم:1–7**)، إكمالٌ لما تقدم في تناولنا لهذا النجم، نود أن نشرك القارئ فيما تدبرناه من هذه الآيات، فقوله (غُلِبَت) من الغلبة بمعني القهر، أي تم التغلب عليها والانتصار على قواتها وقهر إرادتها، وقد وردت مادة هذا الفعل في غير هذا المكان من القرآن الكريم، حيث قال –جَلَّ شَأْنُه–: ﴿.. **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ** ..﴾ (**البقرة:249**) أي: انتصرت عليها وقهرتها، وقال: ﴿**يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ**﴾ (**الأنفال:65**)، وقال: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (**المجادلة:21**)، أي لأغلبن الكافرين، بيانًا لقوله –جَلَّ شَأْنُه: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ (**غافر:51**) فالله غالب على أمره، وخاطب الشيطان المشركين، ووسوس لهم بقوله: ﴿.. **لاَ**

---

[12] لا نقصد بقولنا نجوم السورة أنَّ ذلك هو التنجيم المأثور للسورة؛ بل قصدنا أن نقسم السورة إلى أقسام تتصل ببعضها وتنفصل بحسب موضوعاتها الأساسيَّة ومحاور اهتمامها، وعلى هذا فقد عَدَدْنا النجم الذي مثل مقدمة السورة النجم الأول منها وقد اشتمل على سبع آيات كريمات.

[13] أدني الأرض أقرب بلاد الروم إلى شبة الجزيرة العربية وإلى أهل مكة.

[14] البضع عدد ينحصر من الثلاثة حتى التسعة .

[15] وعد الله الذي وعد به رسله وعباده الصالحين حيث قال: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**..﴾ (**المجادلة:21**) وقوله: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ (**غافر:51**) ووعده بظهور الدين الحق على الدين كله ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ (**الفتح:28**).

[16] علم ظاهر من الحياة الدنيا هو كل ما يستفاد به؛ لإنماء متعهم في الحياة الدنيا دون نظر إلى أنَّ الحياة الدنيا ومتعها في حقيقتها ومآلها إنَّما هي سبيل إلى الآخرة.

غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ..﴾ (الأنفال:48)، (لا غالب لكم اليوم أي ليس هناك من يستطيع قهركم، وإنِّي جار لكم أي مجير وناصر) وقال تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿**فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**﴾ (**الشعراء:41**) وهذا يدل على أنَّ الغلبة لا تقتصر على الانتصار في المعارك الحربيَّة، بل يمكن استعمالها في كلِّ ما فيه صراع أو نزاع أو تنافس، كما فيما هو جارٍ في زماننا هذا من تنافس في الرياضة، بشتَّى أنواعها والتي تنتهي بغالب ومغلوب، لكنَّها إذا أُطلقت فَإِنَّها تنصرف إلى الصراع المسلح أو الحربي .

وقوله :"في أدنى الأرض" أقربها إلى شبه جزيرة العرب، "وهم من بعد غلبهم" أضاف المصدر إلى الضمير؛ ليوضح أنَّهم –من بعد أن غُلبوا وقُهروا– سيَغلبون من قَهَرَهم وينتصرون عليه ويقهرونه، "في بضع سنين" والبضع: من الثلاثة إلى ما دون العشرة، وفي ذلك حكمة كبيرة، أراد أن يشد أذهان المسلمين وأنظارهم، إلى كلّ ما يحيط بهم، وقد يشكِّل تهديدًا لهم، أو يعترض سبيلهم فيما بعد؛ ليهيئ عقولهم وأذهانهم وقواهم وطاقاتهم؛ لمواجهة ما سوف يَجِدُّ بعد ذلك، فإنَّ وضع العالم القديم حين بعث سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– كان أشبه بوضع عالمنا اليوم حيث كان الروم والفرس أشبه بالروس والأمريكان، قبل توقف الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي. وذلك يعني أنَّ أبناء الأُمَّة الشاهدة، ينبغي أن يكونوا شهودًا على العالم لا يغيبون ولا يغفلون عما يجري فيه.

ولئلا تستغرقهم الظلمات، وتصيبهم بالغفلة عن المسبب –سبحانه وتعالى– فإنَّ الله –جَلَّ شَأْنُه– يذكرهم بأنَّ الأَمر له من قبل ومن بعد، وأنَّ النصر والهزيمة، لا يمكن أن يقع أيٌّ منهما بالوسائل الماديَّة المجردة، بل لا بد من اقتران ذلك بالمشيئة الإلهيَّة، فالخلق خلقه، والكون كونه، والأَمر أمره، وإليه ترجع الأمور من قبل ومن بعد. فهزيمة الروم لَمْ تخرج عن دائرة المشيئة، وانتصارهم القادم لَنْ يتجاوز دائرة المشيئة، كذلك لأنَّ لله الأَمر من قبل ذلك ومن بعده. وهذه قضيَّة مُهمَّة، كثيرًا ما يغفل الناس عنها، وتعشو أبصارهم وبصائرهم عن تذكرها؛ انشغالًا بالأسباب عن المسبِّب. وقد يعطي بعض الناس للأسباب أوزانًا لا تستحقها، فتشلّ حركته، أو ينطلق بتهور، ويفقد الميزان، والله –تبارك وتعالى– حين أنزل الكتاب أنزل معه الميزان، والميزان يساعد على إعطاء الأسباب حجمها الحقيقيّ، دون غفلة

عن خالق الأسباب –سبحانه وتعالى، وجاعلها أسبَابًا، وهذه المعادلة كثيرًا ما تختلّ لدى الناس، وهي في حاجة إلى أَلَّا يغفل عنها أحد، ولا يتجاوزها أحد؛ ولذلك فقد بدأ الله –جَلَّ شَأْنُه– برسله الكرام؛ ليؤدبهم بهذا الأدب معه، فيأخذو بالأسباب على أنَّها مسخرات، سخرها الله –سبحانه– ويستحضروا دائمًا أنَّ الله –تبارك وتعالى– هو من جعلها أسبَابًا، وهو قادر على تعطيلها، وأنَّ كلّ شيءٍ بمشيئته –وفرق بين المشيئة والإرادة– فثمَّةَ جوانب ثلاثة: جانبُ الأَمر أو (عالم الأمر)، وهو مجال يندرج فيه الغيب المطلق، وما يتعلَّق بالله –جَلَّ شَأنُه– من أسماءٍ وصفاتٍ وما إليها، "وأغلب" الذي استأثر الله –تعالى– بعلمه، فلا يُطلع عليه أحدًا إِلَّا إذا أراد أن يُطلعَ من رسله من يشاء، وجانب المشيئة أو (عالم المشيئة) وهو أمر يتعلَّق بالخلق، وإيجاد الأشياء، وإبرازها إلى الوجود، وجعلها جُزءًا من الوجود الخارجيّ، بعد أن تكون قد دخلت في عالم الإرادة بعد ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ (**الإنسان:1**)، فحين تعلقت مشيئة الله –تبارك وتعالى– بإيجاد الإنسان، جعلت منه شيئًا مذكورًا، وكذلك كلّ الموجودات أو ما يطلق عليه أشياء، أوجدها الله من عدم، عندما تعلقت مشيئته بها، وذلك ما يطلق بعضهم عليه بعالم الشيئيَّة، أي إيجاد الأشياء إبداعًا لا عن مثال سابق. وجانب الإرادة أو (عالم الإرادة)، فهو عالم سابق لعالم المشيئة، أي جعل المعدوم شيئًا وإبرازه إلى حيز الوجود؛ ولذلك قال –جَلَّ شَأنُه: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (**النحل:40**)؛ فعالم الإرادة هنا يماثل عالم التقدير والتدبير، ويزيد ذلك إيضاحًا قوله تعالى: ﴿.. **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** ..﴾ (**فصلت:10**)، فالتقدير يسبق المشيئة، وبه تتمثل الإرادة الإلهيَّة في إيجاد الأشياء أو إعدامها. فإذًا هناك عوالم ثلاثة لا بد من ملاحظتها (عالم الأمر) وفيه يندرج كلُّ ما يتعلَّق بالله –تبارك وتعالى– وبغيبه المطلق، و(عالم الإرادة) وهو عالم التدبير والتخطيط والتقدير، و(عالم المشيئة) أي إبراز ما سبق لله –جَلَّ شَأْنُه– أن أراده أو قدره إلى حيز الوجود، وفي الآية ذكر للعَوالم الثلاثة، ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (**النحل:40**)، وقد يقول قائل: كيف ذكر الله شيئًا لَمْ يكن شيئًا قبل الإرادة؟ فنقول: إن ذلك وجه من وجوه البلاغة، باعتبار ما سيؤول إليه، فإنَّ ذلك المعدوم الذي لَمْ يكن شيئًا يعلم الله أنَّه سيجعله شيئًا؛ فسماه باعتبار ما يؤول شيئًا، فساغ أن يقول

-جَلَّ شَأْنُه: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ**﴾ أي وقع في دائرة الإرادة ﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾) فكن هي التعبير المتعلق بالشيء أو بجعله شيئًا وإبرازه إلى عالم الوجود وعالم الأشياء، وفي سورة يس: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (**يس:82**)، فتندرج كلُّ التدبيرات التي تسبق المشيئة في إطار عالم الإرادة، وفيه عالم التقدير والتدبير وما إلى ذلك.

إنَّ في القرآن إضمارًا وحذفًا في بعض الأحيان، ومكنونًا ينطوي الخطاب عليه، والله -سبحانه وتعالى- أراد أن يبيِّن لنا أنَّ هذه الرسالة الخاتمة هي رسالة تصحيح وتجديد للدين، وإعادة بناء للحنيفيَّة السمحة ملة إبراهيم، على يدي خاتم النبيين؛ ولذلك فإنَّ خطابها سيبدأ بدعوة الأميين إلى أن يكونوا كتابيين، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الكتابيين لتصحيح وإعادة بناء ما هدموه، وتقويم ما حرفوه، وتنقية ما شابوه وخلطوه حين حرفوا الكلم عن مواضعه، ونسوا حظًا مما ذكروا به؛ فيعيدهم -جَلَّ شَأْنُه- إلى الصدق برسول جاء بالصدق وصدَّق به، وكتاب مصدِّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، وآنذاك يعم السلام، ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ** ﴾ (**الروم:4-5**)، وهو -تعالى- ينصر من يشاء. وهذا النصر ليس كما يتصور بعضهم أنَّه فرح المؤمنين بانتصار الروم، بل فرح المؤمنين بظهور الدين على الدين كلّه. ﴿**بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ (**الروم:5**)، وذكر الرحيم هنا فيه إشارة إلى المؤمنين، الذين يستحقون الرحمة ﴿**وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (**الأعراف:156**).

وَعَدَ الله بظهور الدين على الدين كُلِّه، وانتصار رسل الله المتمثل بانتصار محمد بن عبد الله خاتمهم ومجدّد ما جاءوا به هو وَعْدٌ وَعَدَ الله به عبادَه: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأرضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شيئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (**النور:55**) ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما وَعَدَ الله به أنبياءَه ورسلَه، ولا يعلمون أنَّ وعد الله لَنْ يتخلَّف، وفيه

إشارة إلى آيات ظهور الدين الثلاثة في سور التوبة والفتح والصف: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (**التوبة:33**)

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ (**الفتح:28**).

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (**الصف:9**).

وأنَّ ذلك الضعف الذي كانوا يرون المؤمنين عليه في مكة، لَنْ يدوم وَلَنْ يَستمرَّ لأنَّ علمهم قاصر محدود، معلق بظواهر الأشياء لا ببواطنها؛ فهم حين يعلمون إنَّما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، وعلمُ ظاهر الحياة الدنيا لا يكفي؛ لتحقيق انتصار الحقّ على الباطل، ولا لتحقيق الغلبة، بل لا بد من وجود علم حقيقي شامل، هذا العلم لا يستطيع الإنسان أن يحصل عليه إلَّا من مصدر واحد، هو كتاب الله، ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (**الأعراف:52**) فهو ليس بعلم نظري فحسب، بل علم له واقع مشاهَد، ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحقّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أو نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾ (**الأعراف:53**).

النجم الثاني: دليل الخلق والبعث والنشور ومقدماتها:

﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحقّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كثيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأرضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أن كَذَّبُوا بِآيات اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا**

يَسْتَهْزِئُون * اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (الروم:**8-16**).

الحقّ من "حقَّ" بمعنى "ثَبُتَ"، والحقّ (أي الثابت) الذي لا يعتريه الباطلُ والقلق، ولا يزول إلَّا عند حلول الأجل المسمى، الذي سماه الله –تعالى– لزواله، ووجود هذا الأجل المسمى لا ينفي كونه ثَابتًا، ولا استحقاقه لأن يحمل هذه التسمية ، والحقيقة هي الشيء الثابت، الذي لا مراء فيه، ويمكن إقامَة الأدلّة والبراهين على كونها حَقًّا وأمرًا ثَابتًا، وهو مفهوم كَثُرَ وروده في القرآن الكريم، وتنوعت استعمالاته في سياقات عديدة، بل هو اسم من أسماء الله –جَلَّ شأنه، لأنَّ الله هو الحقّ الثابت، الذي له في كلِّ شيءٍ آيةٌ، تدلّ على وجوده تثبت ذلك الوجود، وتدلّ على اتصافه بِكُلِّ صفات الكمال، وابتعاد كلّ صفات النقصان عنه –جَلَّ شَأنُه– كما قال –تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحقّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كثيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾ (**الروم:8**).. وهذه الآية الكريمة تستدعي قولَه –تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالحقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الدخان:**38-39**).كما أنَّ في قوله –تعالى: (أولم يتفكروا ؟) تنبيهًا لهؤلاء الغافلين، الذين يَدَّعُون أنَّهم من أبناء إبراهيم، ويزعمون أنَّه أبوهم؛ ليلتفتوا إلى التفكير السليم المنهجيِّ، في النظر في الكون مثلما فعل إبراهيمُ في آيات الحجة، التي آتاها الله له، والتي ورد تفصيلها في سورة الأنعام، قال الله –تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إبراهيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ**

الْمُشْرِكِينَ * وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أن يَشَاءَ رَبِّي شيئًا وَسِعَ رَبِّي كلَّ شيءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:74–80).

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم:9) وهذه الآية تستدعي إلى الذاكرة آية سورة الأنعام التي قال الله –تعالى– فيها: **﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (الأنعام:6)** وآية سورة فاطر **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: 37)** هذه الآية تضع لنا أُنموذجًا ثَابتًا للعمران، وتنبِّه للمراد بالحضارة، وتثير تساؤلًا مهمًا، هل الحضارة والعمران مفهوم يرتبط بإثارة الأرض، وحرثها وزرعها، أو البناء عليها وإقامَة شواهق العمائر والأبنية، والشوارع المعبدة السالكة بينها، أو هي شيء آخر، يستوعب ذلك ويتجاوزه؟ إنَّ القرآن المجيد ينحاز إلى الإنسان دائمًا، ويَعُدُّ سموَّه ورقيَّه، والاعتداد بإنسانيَّتِه وإنمائها أساسَ العمران، وحَجَرَ الزاوية في بناء الحضارة، فلا حضارة طالما لا تُعظِم شأنَ الإنسان، ولا تحفظُ كرامته التي أكرمه الله بها، ولا تباعد بينه وبين الامتهان والإذلال والاستعباد.

ومن هنا يُعَدُّ غيرَ ملاحِظٍ للقرآن من يَعُدُّ أنَّ الحضارة الإسلاميَّة تجلَّت في قصور بني أميَّة بالشام ومساجدهم، وفى قصور بني العباس في بغداد المدينة المدورة ومساجدهم ومؤسَّساتهم، ولا ينظر إلى الحضارة كما أُرسيَت دعائمها، في مجتمع المدينة على يدي رسول الله –صلَّى الله عليه وآله وسلَّم– فالمدينة المنورة –حتى وقت قريب– أشبه ما تكون بقرية من القرى الكبيرة، ولم يَبْنِ رسولُ الله –صلَّى الله عليه وآله وسلَّم– ولا خلفاؤه الراشدون من بعده ناطحات سحاب، ولم يؤسِّسوا لمدينة مثل إرم ذات العماد، وإنَّما كان الجهد كُلُّه متَّجها نحو الإنسان، وكيفيَّة إصلاحه وتعليمه الكتاب والحكمة وتزكيته، وجعله إنسانًا مكرَّمًا،

مستخلفًا مؤهلًا لقيادة قوافل التسبيح لله -جَلَّ شَأْنُه- في هذه الأرض في الحياة الدنيا، وإحباط جهود الشيطان، لاجتيال الناس عن سبيل الله -تبارك وتعالى.

فهذه القرية على صغر مبانيها وعمرانها، تُعَدُّ صانعة الحضارة، وأقربَ إلى رُوح العمران القرآنيِّ من الشام وما شاده الأمويون فيها، وبغداد وما عمره العباسيون فيها، وإسطنبول وما عمره العثمانيون فيها.

من هنا نستطيع أن ندرك كيف تغيَّرت المفاهيم، وأصبحت العمارة والحضارة رهنًا بالقدرة على تصنيع الحجر، ففي الماضي وفي عهود الوثنيَّة كان الحجر يُصنع أصنامًا آلهةً، وكانت بعض الأمم تنحت من الجبال بيوتًا، وتثير الأرض وتعمّرها، وتشق الأنهار والقنوات وتزرع وتحصد، وتفعل الكثير ولو على حساب اضطهاد الإنسان، وإذلاله والهبوط بكرامته، فقد بنيت الأهرامات والقلاع الرومانيَّة، وساحات الألعاب والمصارعات، وتفاخر الناس بها ونظروا إليها على أنَّها مصدر فخارهم وعزهم وإبداعهم، بقطع النظر عن تلك الأرواح، التي كانت تزهق والناس يقومون ببناء تلك القلاع، والأهرامات والجِنان المعلقة وما إليها.

نزل القرآن على قلب محمد بن عبد الله -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم-؛ليبين للناس أنَّ الإنسان وكرامته وحياته وطاقاته ودوره في الحياة أجلّ وأهم من ذلك كُلِّه، ودار الزمان وبرزت النظريَّات المعاصرة للتنمية الشاملة والجزئيَّة وما إليها، فأعدَّت البرامج العشريَّة والخمسيَّة وسواها، ونظر إلى الإنسان لا على أنَّه هدف التنمية وصانعها، بل على أنَّه وسيلة، وأداة لتحقيقها وإنجازها؛ فكثيرًا ما حُرِم وعُطل عن العمل، وامتُهنت كرامتُه وأُوذي في إنسانيَّته من أجل تحقيق ذلك، الذي سمي بالتنمية، ولما برزت بعض المشكلات حاولوا معالجتها بما أطلق عليه "التنمية البشريَّة"، والقرآن الكريم يؤسِّس لهذه التنمية بالتوحيد والتزكية التي تجعل الإنسان قادرًا على صناعة التنمية وإيجادها.

إنَّ الله -تبارك وتعالى- قد خلق السموات والأرض بالحقّ: ﴿.. **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (**آل عمران:191**)، ﴿**مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (**الدخان:39**)، ﴿**مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾ (**الأحقاف:3**)، وهذا الثبات الذي بمقتضاه استحقت السمواتُ والأرض أن يوصف خلقُها بأنَّه حق، أي ثابت دائم

مستقر، فإذا خلا شيء من ذلك الحقّ الثابت، فإنَّه يكون لهوًا ولعبًا؛ ولذلك قال -جَلَّ شَأنُه: ﴿**إِنَّما الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ**﴾ (**محمد:36**)؛ لأنَّها حين تخلو من التوحيد والتزكية وتغيّر في مفاهيم العمران والبناء والحضارة فَإنَّها تتجه نحو العدم والعبث لا نحو شيء آخر.

هنا يبرز الكفر بوصفه مانعًا من التفكير ومعطلًا لقوى الوعي وصارفًا لها عن أداء وظائفها.

﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا**﴾ أَوَ لَمْ يُقلّبوا أذهانهم وقوى الوعي لديهم في أنفسهم، وهو مِثْلُ قوله -تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلِّ شيءٍ شَهِيدٌ**﴾ (**فصلت:53**)؛ فهو حضٌّ من الله -تبارك وتعالى- لهم أن يتفكروا في أنفسهم، ليدركوا أنَّ الله -جَلَّ شَأْنُه- ما خلق السموات والأرض إلَّا بالحقّ؛ فلم يخلقهما عبثًا ولا لعبًا ولا لهوًا، ومن ثَمَّ فهو لَنْ يترك الناس سدًى؛ بل سيحشرهم إليه جميعًا، ويحاسبهم على ما قدموا في هذه الحياة الدنيا؛ ليكونوا فريقين بعد ذلك: فريق في الجنة وفريق في السعير.

على أنَّ الربط بين الأنفس والآفاق أو بين الأنفس والسموات والأرض منبه على أنَّ الإنسان وإن بَدَا صغيرًا، ففيه انطوى العالم الأكبر، كما روى عن علي رضي الله عنه :

دواؤك منك ولا تشعر وداؤك منك ولا تبصر

وتزعم أنَّك جِرْمٌ صغير وفيك انطوى العَالَمُ الأكبرُ

فالإنسان ابن هذا الكون، وسيِّده المستخلف فيه، والمنظومة الكونيَّة مثل المنظومة الإنسانيَّة، كلٌّ منهما شبيه بالآخر، يدل على وجوده ويستدعيه.

والأجل المسمّى قد مر في سورة الأنعام، ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ**﴾ (**الأنعام:2**)؛ فهناك الآجال الجزئيَّة التي يرتبط بها الأفراد وآجالهم، وهناك الأجل المسمى للأحياء كافَّة، حيث يفنى كلُّ من عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، أَلَا وهو يوم القيامة.

فكون وجود الأجل المسمى، لا ينفي كونها حَقًّا ثَابتًا مستمرًّا من بداية الخلق حتى حلول الأجل المسمى.

إنَّ هذا الإنسان حين تمسه النعماء، وتحيط به السراء، كثيرًا ما يغفل عن نفسه وعن حقيقته، وقد يوهمه الشيطانُ وكبرياؤه وايحاءاتُ شياطين الإنس والجن، أنَّه مالك هذا الكون وموجدُه، وليس مجرد إنسان مخلوق مُستخلَف فيه، متمتع بما أودع الله فيه من نعم، هي ليست من صنع الإنسان، حتى وإن بدا للإنسان أنَّه يصنع شيئًا، بل هي من صنع الله – تعالى. بل حين يغفل عن ذكر الله أو ينساه تُسارِعُ نزعة الطغيان والاستعلاء فيه إلى الظهور؛ فيمشي في الأرض مرحًا، كأنَّها له، وكأنَّه قادر على اختراقها، ألم يقل فرعون لقومه: ﴿ **يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾ (**الزخرف: 51–52**)؟ فَيَعُدُّ أنَّ هذه النعم كأنَّها بعض ما خلق وأوجد بنفسه، فيبغي على الناس، ويستعلي عليهم. ولذلك فإنَّ الإنسان في حاجة دائمة إلى أن يتفكر في السموات والأرض، وما خلق الله فيها، ويذكِّر نفسه بأنَّها ما خلقت إلَّا بالحق، لَمْ يخلقها هو وَلَمْ يَعْنَ الخالق العظيم في عمليَّة إنشائها وإيجادها، فالباطل الذي منه تلك التصورات الإنسانيَّة الخاطئة الساذجة لا بد أن يُجتنب، وإلا فقد يبلغ الغرور بهذا الإنسان، الحد الذي بلغه عند فرعون، والذي بلغ من قبله، عند الذي حاج إبراهيم مبلغًا مماثلًا، وزعم أنَّه يحيي ويميت، بقتل سجين وإطلاق آخر. من هنا يصبح التفكير في خلق الله عبادة أساسيَّة، تكوِّن عند الإنسان المناعة من الاستعلاء والغرور، وكلّ ما يؤدي إلى البغي والطغيان.

وبعد أن ندبهم إلى التفكير في أنفسهم، أنذرهم ودعاهم إلى السير في الأرض، ليروا عواقب أولئك الذين كذبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، ولم ينظروا فيما جاءهم به رسل الله، ليعلموا أنَّه لَنْ تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ولا ثراؤهم وغناهم، فمن أُهلكوا قبلهم أثاروا الأرض وعمروها أكثر ممَّا عمروها، وما أغنى عنهم جمعهم ولا ما بنوا وشقّوا من طرق وأنهار، وعمروا من مدائن وقصور، لما حقَّت عليهم الكلمة، وهؤلاء لَمْ يُهلكوا بظلمٍ؛ لأنَّ الله لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلِمون.

وعاقبة الذين أساءوا السُّوءَى لأنَّهم كذبوا بآيات الله، وكانوا يسخرون منها ومن رسل الله فيكون جزاؤهم أن يصرفوا عن آيات الله، بما تكبروا على رسل الله واستكبروا في الأرض من دون استحقاق، ولم يدركوا أنَّهم على ضلال وانحراف والعياذ بالله رب العالمين:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِن يَرَوْاْ كلّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:146).

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾ (الروم:11) مع آيات العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (العنكبوت:19)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرض فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشئ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت:20)، فهو الذي بدأ الخلق لا على مثال سبق،﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأٌ رْضِ﴾ (البقرة: 117)

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الروم:12) يبلس، أي يَيْئَس المجرمون إذ لا عودة إلى الدنيا فيقولون: يا ليتنا نُرَدّ ولا نُكذَّبَ بآيات الله، حيث يعرفون أنَّهم لَنْ يستدركوا أو يتلافوا ما حدث، حيث لا عودة إلى الحياة الدنيا، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، لو وُجدوا وَلَنْ يكون في مقدورهم أن يفتدوا من عذابه يومئذ ولو تمنّوا ذلك ورغبوا فيه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الروم:13)، فلا تنفهم شفاعة الشافعين وَلَنْ يغنيَ عنهم من الله شيئًا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (الروم:14-15)

يحبرون: أي يسعدون ويسرون. فريق في الجنة وفريق في السعير، وَلَنْ يستطيع الذين استحقوا السعير وعذاب جهنم أن يغيروا من ذلك المصير وتلك النتيجة المحتمة. قال الله – تعالى: ﴿حَتَّى إذا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون 99-100).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (الروم:16)

يحضرهم الملائكة بحيث لَنْ يكون لديهم فرصة لهرب أو اختفاء؛ فالملائكة الموكلون بهم يحضرونهم إحضارًا لينالوا العذاب. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيات رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر:71–72).

النجم الثالث: من دلائل القدرة

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (الروم:17)

هنا يبدأ الباري –سبحانه وتعالى– بتقديم مجموعة كبيرة من الآيات لتكون دليلًا على تفرده –سبحانه– بالأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:54) والإرادة والتدبير وتحقيق المشيئة، وإنَّ هذه الآيات من الآيات الحسيَّة التي أعطيها الأنبياء من قبل ويطالبك هؤلاء بأن تأتي بمثلها وكأنَّهم لَمْ يكفروا بأولئك الأنبياء والمرسلين بالرغم من الآيات الحسيَّة التي قدموها لهم. فتأخذنا الآيات في جولة تقف بنا على النفس الإنسانيَّة في إطارها الفرديِّ ومحيطها الأسريِّ والمجتمعيِّ، وظواهر الطبيعة التي تحيط به وكأنَّ في ذكر هذه الآيات مجتمعة مع تصدير كلٍّ منها بقوله –تعالى: "ومن آياته" تذكيرًا للمشركين بغفلتهم وضآلة فهمهم وعدم اعتبارهم بِكُلِّ تلك الآيات، ومطالبتهم الدائمة لرسول الله –صلَّى الله عليه وآله وسلَّم– بأن ينزل عليهم آياته ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:37) فكأنَّه في هذه الآيات يقول لهم: إن كلَّ شيءٍ مذكور هنا هو من آيات الله، بل إنَّ آيات القرآن الكريم الحكيم المجيد التي بلغت 6238 آية[17] كل منها يُعَدُّ آية لو أحسنوا التدبر

[17] طبقا للحساب العددي من مصحف عثمان بن عفان –رضي الله عنه. وهذا العدد مختلف فيه، قال ابن كثير "فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال فمنهم من لم يزد على ذلك ومنهم من قال ومائتي آية وأربع آيات وقيل وأربع عشرة آية وقيل ومائتان وخمس وعشرون آية أو ست وعشرون آية وقيل ومائتان وست وثلاثون حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن

وأبصروا الآيات ولم يَعْشُ أبصارهم عنها، وقد بدأ بشيء بَدَهِيٍّ ومعروف وهو بناء الأسرة فقال –جَلَّ شَأنُه: ﴿**وَمِنْ آياته أن خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (**الروم:21**) ففي هذه الآية الكريمة على وجازتها يمكن أن يدرك الإنسان مجموعة كبيرة هائلة من المعلومات والنظم والفوائد، ويستنبط قوانين لهذه العلاقة التي تبدو لبساطتها وبداهتها، وكأنَّها علاقة بسيطة جدًّا لا تستحق الالتفات، لكن الله –جَلَّ شَأْنُه– عَدَّها آية من آياته، ودليلًا من دلائل قدرته، فقال –جَلَّ شَأْنُه: ﴿**وَمِنْ آياته أن خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾ (**الروم:21**) وهو –جَلَّ شَأْنُه– هنا يشير إلى الخلق الأول أي خلق أمّنا حواء؛ ولذلك استعمل "خَلَقَ" لا "جَعَلَ" وقوله –جَلَّ شَأْنُه: (**مِنْ أَنفُسِكُمْ**) من جنسكم أنتم بشرًا مثلكم، وما أروع هذا التعبير في الدلالة على المساواة التامَّة الكاملة بين الرجال والنساء، هي أعمق وأدق في الدلالة على هذه المساواة من أي تعبير آخر، عرفته العربيَّة فهي منكم ومن أنفسكم، ليست شيئًا خارجيًّا أو بعيدًا عنكم، (**أَزْوَاجًا**) وجمع الزوج هنا دون أن يعطي ما أَلِفَه الناس من تسمية المرأة بزوجة والرجل بزوج، إشارة إلى تحييد اللغة، فقد استعمل –جَلَّ شَأْنُه– هنا تعبيرًا محايدًا، فكلٌّ من الزوجين زوج للآخر، دون تأنيث أو تذكير؛ فالرجل زوج والمرأة زوج فالزوجيَّة عدد فوق "الفرديَّة" يتجاوزها، وهذا النظام هو نظام سائد في الخلائق كلِّها وفي مقدمتهم البشر: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (**يس:36**) فنظام الزوجيَّة جعل الله منه دليلًا على وحدانيَّته – تبارك وتعالى، فكل ما في الوجود عداه –سبحانه– خاضع لنظام الزوجيَّة، والله –تبارك وتعالى– وَحْدَه هو الفرد الصمد الواحد الأحد، الذي لَمْ يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وخلق البشر أزواجًا، وجعلها من أنفسنا؛ لتحقيق أمور حياتيَّة نفسيَّة وقلبيَّة وعاطفيَّة وأمور

يسار سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد هذا ما أحصيناه من القرآن وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا وقال الفضل بن عطاء بن يسار ثلثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا وقال سلام أبو محمد الحماني إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال اخبروني عن القرآن كله كم حرف هو قال فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألف وسبعمائة وأربعون حرفا. تفسير ابن كثير 8/1

.

حياتيَّة أخرى ماديَّة وحسيَّة، فخَلْقُ أزواجنا من أنفسنا –سواء أكنّا رجالًا أم نساءً– هو نعمة كبرى، ودلالة كبيرة على وحدانيَّته، وفي الوقت نفسه تحقق لكل من الزوجين الذكر والأنثى السكن النفسيّ والأمن والطمأنينة، وتوجد بين الزوجين مودة ورحمة، والله –تبارك وتعالى– يعطي في هذه الآية الكريمة إشاراتٍ مُهِمَّةً جدًّا إلى الجوانب النفسيَّة والقلبيَّة والعاطفيَّة، وعلاقتها كلّها بالالتزام بأوامره –سبحانه وتعالى، واتباع ما ورد في كتابه لا في الخروج عنه، فأولئك الذين يقيمون علاقات محرمة كثيرًا ما تؤدي إلى مشكلات كبيرة بين الرجل والمرأة قبل الارتباط بعقد النكاح، ويعرضون أنفسهم للأخطاء والذنوب مخطئين حين يتصورون أنَّ المودة والرحمة يمكن أن تأتي قبل الزواج، أو عبر اتصالات تتم خارج إطاره، بل إن الآية الكريمة تنبه بوضوح شديد على أنَّ المودة والرحمة بين الزوجين، وإحلال ذلك في قلب كلٍّ منهما إنَّما هو أمر إلهي، يأتي من الله –تبارك وتعالى– أكثر مما يأتي من جهد الإنسان وكسبه، فهو –سبحانه وتعالى– الذي يوجد في قلب كلٍّ من الزوجين إذا التزما بأوامره ولم يسقطا في نواهيه، ووقفا عند حدود الله، ولم يتعدَّ أيٌّ منهما تلك الحدود، ضُمن لهما أن يجعل في قلوبهما المودة والرحمة ويؤلف بينهما، ويجمع بينهما بخير ما أقاما حدود الله، وهذا كُلُّه يجعل عمليَّة النكاح عمليَّة تؤدي إلى بناء مؤسَّسة، هي مؤسَّسة الأسرة، بناءً متينًا قويمًا سليمًا؛ لتصبح حجر زاوية في بناء المجتمع والأُمَّة.

فهي في هذا الإطار يمكن أن تكّون آية من آيات الله ودليلًا من دلائل قدرته وبرهانًا من براهين وحدانيته –تبارك وتعالى– ولو أردنا إعداد كتاب كامل في شرح هذه الآية وتفسيرها وبيانها لأمكن إعداد مجلدٍ كبير في هذا المجال.

وقَدَّمَ ذكرَ الأسرة والزوجيَّة على آية خلق السموات والأرض ؛ لبيان مدى اهتمامه بها، وضرورة بنائها على أقوى الدعائم، علمًا بأنَّ خلق السموات والأرض أكبر، ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (**غافر:57**).

ثم قال : ﴿وَمِنْ آياتِه خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:22)

وقد جاء خلق السمواتِ والأرض في القرآن في مواضع عديدة، واستدلَّ به على وجود الله وعلى وحدانيَّته، وعلى البعث والنشور، وذكره هنا في هذا السياق؛ لينبه للعلاقة الوثيقة بين خلق السموات والأرض، – واختلاف كلٍّ منها عن الأخرى –، وخلق الإنسان وما أودعه الله فيه وتضعها مع النعم التي أنعم الله –تعالى– بها على الإنسان؛ لأنَّها مسخرة في الأصل له، قال الله –تبارك وتعالى: ﴿**اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ (**إبراهيم**:**32–34**).

واختلاف ألسنتكم وألوانكم؛ فهذا الاختلاف الذي يجعل كلَّ إنسان كِيانًا منفصلًا مختلفًا في بصماته وجيناته وفكره وقدراته واستعداداته وطاقاته، وفي الوقت نفسه هو واحد في جنسه ونوعه، فكل بني آدم مشتركون في حقيقة الآدميَّة والإنسانيَّة، مختلفون في بعض الأمور الشخصيَّة؛ ليكون في ذلك دلالة على أنَّ هناك خالقًا عظيمًا، تفرد في الخلق بالإيجاد لا شريك له.

فلو اتحد البشر في كلِّ شيءٍ لما تحقق الاستخلاف مثلما حدث بالنسبة للملائكة الذين كانوا جميعًا مشتركين في أنَّهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنَّهم خلقوا من نور، وأنَّهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فلو استخلفوا وهم متماثلون بهذا القدر فلن تتحقق أهداف الاستخلاف والائتمان والابتلاء، التي حددها الله –جَلَّ شَأْنُه– وجعلها مهمة لمن أراد أن يجعله خليفة في الأرض، ولذلك عَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها، ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ (**البقرة**:**31–32**).

ولقد وردت أقوال كثيرة في الأسماء التي علمها الله آدم، فهي أسماء الأشياء الموجودة في الأرض، أو هي أسماء أخرى، ولعل من أقرب تلك الأقوال والمعاني إلى الآية المتناولة هنا أنَّ تلك الأسماء هي الأسماء المتعلقة ببناء الأسرة، التي هي النواة الأولى للمجتمع التي سيقوم المجتمع عليها ويبنى على دعائمها، مثل: زوج، وأب، وأم، وأخ، وأخت، وما إلى ذلك. فهذه

الأسماء هي التي يحتاج إليها المستخلف، أَلَا وهو الجنس البشريّ، بَدْءًا بآدم –عليه السلام، قال الله –تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (**الأعراف:189–190**).

واختلاف الألسن دعامةُ للتآلف وأساس للتعاون، كما أنّ الكلام وتقطيع الأصوات إلى أحرف هي وسيلة البيان والإفصاح عن الحاجات التي يتوقف عليها التآلف والتعاون والتعارف الذي ذكرنا، وكذلك اختلاف الألوان، من وسائل التعارف والتعاون والتآلف، فهى اختلافات تمثِّل آية، ودلالة على قدرته وعنايته –جَلَّ شَأْنُه– بالجنس البشريِّ الذي استخلفه وإعانته له علامة مهمَّة، لذلك جاءت الفاصلة تبين أنَّ هذه الآيات يعقلها العلماءالذين أُوتوا العلم وعلموا من الله –جَلَّ شَأْنُه– حكم وفوائد التسخير واختلاف الألسن والألوان ونظام الزوجيَّة، وعلاقة ذلك كُلِّه بوحدانيَّة الله –تعالى– وألوهيَّته وربوبيَّته.

وهؤلاء العلماء ينبغي عليهم ألَّا يكونوا من أُولئكَ الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ولكن من علماء الجمع بين القراءتين، المدركين حق الإدراك لتفاصيل النشأتين؛ يدركون العلاقة بين الإنسان وتاريخه والمحيط الجغرافي الذي يعيش فيه،وتداخله مع شعوب الأرض الأخرى من عدمه، وتداخل اللغات وتناقلها ونموها أو ضمورها، وآثار العوامل المختلفة في انتشار لغة وضمور أخرى؛ فنحن اليوم وقد اخترع غيرنا من الغربيين واليابانيين جميع الإلكترونيَّات الحديثة والأجهزة المعقدة المتطورة، نستجديهم استجداءً أن يحسبوا حساب اللغة العربيَّة؛ لنتمكن من استعمالها بلغتنا، لكنَّ جُلَّ العالَمِ يستخدم لغات المخترعين والمطورين لهذه الأجهزة مهما تعقدت لغاتهم كاليابانيَّه والصينيَّة، أو تيسرت كالإنجليزيَّة وغيرها، فانتشرت لغاتهم وانكمشت لغتنا، فلم نعد قادرين على دراسة العلوم الحديثة كافَّة بلغتنا، فحصل لدينا ما يشبه الضمور الفكريّ، بعد توقف لغتنا عن المشاركة في بناء العلم والتقنية وما إليها.

نحن نستخدم الفضائيَّات والتلفاز والحاسوب، لكن الأفكار التي سبقت هذه الاختراعات وتصنيعها لا نعرف عنها الكثير؛ فالترجمة لا تترجم الفكرة، بل تترجم الأجهزة

والآلة، فإذا أردنا أن نكون أمَّةً وسطًا وشاهدةً تتَّسم بالخيريَّة فإنَّنا في حاجة ماسَّةٍ إلى أن نتقن لغاتٍ مختلفة، ونجعل لسان القرآن واللغة العربيَّة لغة عالميَّة، يستعملها العالمُ كُلُّه ليكون ذلك وسيلته؛ للاطلاع على القرآن المجيد، وحسن فهمه ومعرفة قيمته والاهتداء بنوره.

هذا ومعرفة الأسماء على حقائقها له أهميَّة كبيرة غَفَلْنا عنها فتساهلنا فيها، وكثيرًا ما نتداول أسماء مترجمة، أو وضعت دون سلطان أو دليل من دون أن نلقيَ لها بالًا، ويكون لها بعد ذلك من الخطورة، ما قد تؤثر في اتجاهات كثيرة آثارًا سلبيَّة، لا يكون الخلاص منها سهلًا بمثل السهولة التي دخلت فيها إلى ساحة الأفكار.

لذلك فمعرفة الأسماء ومعرفة الاختلافات فيها تعد من المعارف الضروريَّة للمسلم؛ لأنَّها من شروط الشهادة، كما أنَّها أهم مؤهلات الاستخلاف.

وأمَّا الألوان فهي الأخرى في حاجة إلى عناية خاصَّة من المسلمين، لا ينبغي أن يغفلوا عنها، فحين غَفَل عنها المؤمنون وضع أنصار الشيطان علمًا، أسموه بعلم الأنثربولجي أو علم الإنسان، فصنفوا الشعوب إلى شعوب دنيا، لا يمكن أن تقيم حضارة ولا أن تبنيَ عمرانًا، لأنَّ ألوانها كذا وَمُناخها كذا، وأعطوا لأنفسهم حق الاستعلاء على شعوب الأرض؛ لأنَّهم كما صور لهم الشيطان شعوب مصطفاة لبياض ألوانها ولسكناها في بقاع من الأرض، أضفوا عليها من صفات القداسة ما شاءوا؛ ليجعلوا منها أرضًا تليق بشعوبهم الراقية، بل أطلقوا على لغتهم وصف اللغات الحيَّة مقابل اللغات الميِّتة. هنا يأتي دور العالِمين الذين يحملون مسئوليَّة رد الاعتبار لشعوب الأُمَّة المسلمة كلّها، إضافة إلى شعوب الأرض الأخرى؛ ليسود القانونُ الإلهيُّ القائل: ﴿.. **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ..﴾ (**الحجرات:13**) وليس تبعًا للونٍ أو عرقٍ أو جنسٍ.

﴿**وَمِنْ آياته مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ (**الروم:23**) ثمَّ ينتقل السياق إلى حالة تتكرَّر في اليوم والليلة؛ ليبيِّن أنَّها آية مهمَّة من آيات الله، ﴿.. **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾ (**يونس:92**)، أَلَا وهي منامنا بالليل، الذي جعله الله سباتًا، أي راحة للأبدان، وتجديدًا لخلاياها، وفي الوقت نفسه جعلنا في النهار قادرين على التماس معايشنا، وتدبير حاجاتنا، فجعل لنا الليل والنهار

آيتين: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا**﴾ (**الإسراء:12**)، ولكي ندرك أهمية هاتين الآيتين قال الله –تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ (**القصص:71–72**). فهذه آية متكررة مستمرة يفترض ألَّا نغفلَ عنها، ومع ذلك فهم غافلون عنها، ويطالبون بآيات حسيَّة متجاهلين ما يحدث لهم كلّ لحظة من آيات الله –جَلَّ شأنه، فهذه الآيات كانت ستكون كافية لهم لو أنَّهم يسمعون سمعًا حقيقيًا، والذي يتوقف على أن يكونوا من الذين اتقوا، كما قال الله –تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إذا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (**المائدة:93**) فهؤلاء هم ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُو الْأَلْبَابِ**﴾ (**الزمر:18**)، فكان يجب عليهم أن يستجيبوا لأوامر الله تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ (**الأنفال:20–23**) إذًا: فالذين يستطيعون إدراك هذه الآيات في الكون الطبيعي وفي الإنسان لا بد أن يكونوا من الذين يسمعون، أمَّا الذين لا يسمعون كالأصناف التي تقدّم ذكرها، فإنَّهم لا يستفيدون بهذه الآيات، ولو استجاب الله لمقترحاتهم وآتاهم المعجزات الحسية؛ فلن يستجيبوا أيضًا بسبب الوَقْر الذي ملأ آذانهم وأصمَّها عن سماع الحق، قال –جَلَّ شَأنُه: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾ (**الإسراء:46**).

﴿**وَمِنْ آياته يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (**الروم:24**)

- في سورة البقرة ذكر الله –سبحانه وتعالى– مثالًا للمنافقين فقال: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**البقرة:19–20**)، فالبرق له في نفوس الناس هيبة وكذلك الرعد، وحينما تنزل صواعقُ مع شدة البرق والرعد فإنَّ الخوف لدى الناس يزداد، وظواهر البرق والرعد والصواعق هي ظواهر طالما تعرضت لها الأَديان الوضعيَّة في تاريخ سحيق، حيث كان الكهنة والأدعياء كثيرًا ما يخيفون الناس بها، حتى أنَّ بعض الأَديان نعتت البرق بأنَّه إله [18]وسمَّته إلهَ البرق، وإله الرعد، وإله الصواعق –تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا– وكان هؤلاء الأدعياء والكهنة كثيرًا ما يضلّون الناس ويبتزونهم بافترائهم وادعائهم القدرة على عمل تمائم وأحجبة، تقيهم من شرِّ البرق إذا غضب، والرعد إذا زمجر، والصواعق إذا نزلت، وقد ورد مثل هذا في قوله –تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾ (**الرعد:12–13**)، ليبيِّن أنَّ الرعد والبرق والصواعق والغيث نفسه كلّها أمور بيد الله – جَلَّ شأنه، وأنَّ البرق يُطْمِعُ الإنسانَ بنزول الغيث، فيرجو أن يكون موسم زراعته وكلأه موسمًا حافلًا جيدًا، وفي الوقت نفسه قد تدركه الخشية والخوف من أن يكون البرقُ رسولَ عذاب، والصواعق قد يصيب الله بها من يشاء بأجله –سبحانه: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ (**فصلت:13**).

الذاكرة البشريَّة –إذًا– تحتفظ بانطباعات متنوعة عن قضايا البرق والرعد والصواعق وغيرها؛ فكثيرًا ما يقترن الخوف بها، لكن هذه الآية تضع هذه الظواهر الطبيعيَّة في حجمها الطبيعيِّ، فهي آيات من آيات الله وعلامات ودلائل على قدرته –جَلَّ شَأنُه، فالعقلاء من الناس هم الذين تكون عقولهم قادرة على تمييز الحسن من القبيح والحقّ من الباطل،

[18] **يوجد في** قائمة آلهة الإغريق **إله اسمه زوس يلقب بملك الآلهة وحاكمها، وهو إله الرعد والبرق. ويكيبديا الموسوغة الحرة .**

فيستطيعون إدراك المعاني الكامنة وراء هذه الظواهر، ومعرفة أنَّها ظواهر خاضعة لإرادة الله وقدرته، وليست مجرَّد ظواهر تسير من دون مهيمن ولا مسبب، فهي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تؤذي ولا تدفع، إلَّا بإذنه –سبحانه وتعالى.

﴿وَمِنْ آياته أن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأرضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إذا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إذا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (**الروم:25**)

يقول –سبحانه وتعالى: **﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ..﴾** (**البقرة:255**) ويبدأ سورة آل عمران بقوله: **﴿اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** (**آل عمران:2**)، وقال –جَلَّ شَأنُه: **﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾** (**المؤمنون:84–89**)؛ فالسموات والأرض ومن فيهن يقوم الله –جَلَّ شَأْنُه – وَحْدَه بها، ولو لَمْ يَمُنَّ الله –تعالى– بقيوميّته بها لأقلّ جزء من الثانية لانهارت كلّها بما عليها ومن عليها، فلا غرابة أن ينبَّه الله –تعالى– لهذه الآية المشاهدة المحسوسة، والتي تغني عن آلاف المعجزات والخوارق التي وقعت على أيدي أنبياء سابقين، كما أنَّ هناك آية أخرى تعقب زوال السموات والأرض عند القيامة، أَلَا وهي قضيَّة البعث ثم الحشر فالحساب فالجزاء، فيقول –تعالى: **﴿.. ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾** (**الروم:25**) ففي هذه الآية الكريمة عُدَّت عمليَّة البعث بمنزلة دعوة يدعو الله بها عباده؛ ليخرجوا من قبورهم متجهين نحو المحشر؛ ليبين سهولة ذلك، وأنَّه ليس بالأَمر المعقد الذي يتيح لهم أو يتطلب منهم أن يستبعدوه.

وفي آية أخرى يقول –جَلَّ شَأنُه: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأرضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فإذا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** (**الزمر:68**) فكأنَّ الدعوةَ المذكورة في الآية المتناولة هي النفخةُ الثانية التي يخرج الناس بها من قبورهم بكامل حياتهم وحيويتهم فإذا هم قيام ينظرون. وفي سورة يس يقول –جَلَّ شَأنُه: **﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فإذا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** (**يس:52–53**)؛ فهؤلاء الذين يقومون هم

جميع البشر من لدن آدم حتى قيام الساعة، يتساءلون أول قيامهم وانفراج القبور عنهم وإلقاء الأرض لهم من بطنها إلى ظهرها، ويتساءلون "من أخرجهم من مراقدهم تلك ؟!" فيجيبهم الله –تعالى– أو الأنبياء والرسل والذين أنعم الله عليهم: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ (**يس:52**) ويقول الله –تعالى: ﴿**وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأرضِ كلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**﴾ (**الروم:26**)؛ فكأنَّه –جَلَّ شَأْنُه– يقول لهؤلاء المشركين: إذا أمرتكم بالإيمان بي وبوحدانيَّتي وبالبعث بعد الموت والحساب والجزاء والعبادة والتقوى، فإنَّ ذلك كُلَّه من أجلكم أنتم، أمَّا أنا فغنيٌّ عنكم وعن عبادتكم؛ فلي كلُّ من في السموات والأرض قانتون خاضعون، قال –تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأرضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء**﴾ (**الحج:18**) فالله –تعالى– ليس في حاجة إلى عبادة أحد ولكنَّه –تعالى– تفضّلًا منه وتكرمًا وإنعامًا لا يرضى لعباده الكفرَ، ولذلك قال موسى –عليه السلام– ﴿**وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأرضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ (**إبراهيم:8**).

﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأرضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (**الروم:27**) يعود السياق ليخاطب هؤلاء ليذكّرهم أنَّ الله –تعالى– هو الذي بدأ الخلق؛ فيفترض أن تدركوا أنَّ من بدأ شيئًا على غير مثال سابق يستطيع إذا تَلِفَ ذلك الشيءُ أو تحطم أن يعيده، بل سيكون أمرُ الإعادة أسهلَ من أمر الابتداء، لكن لله المثل الأعلى فهو القادر في الابتداء، وهو القادر على الإعادة، وكلاهما بالنسبة إليه سواء، لكنَّه أراد أن يخاطب تلك العقول القاصرة، وأن ينبهها لأن تتعلم طرائق الاستدلال والاحتجاج لما تريد بشكل مقنع مقبول، فخاطبهم بالآية المذكورة.

﴿**ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (**الروم:28**) تتجه الآية الكريمة إلى ضرب مثل مُهِمٍّ جدًّا لعله يوقظ أولئك الغافلين والمستكبرين من الضالين الذين يصرّون على أن يجعلوا لله شريكًا من عباده أو ممَّا

يخلقون من إفكهم، فيضرب الله –تعالى– هذا المثل المعبر أَيضًا من أنفس هؤلاء، فهم قلَّ أن تخلوَ بيوتُهم أو متاجرهم من الرقيق، فيضرب الله –جَلَّ شَأْنُه– لهم المثل : لو أنَّ واحدًا من الأرقّاء المملوكين لهؤلاء الجاحدين قال لسيده: إنِّي مثلك شريكك فيما تملك، أختار لك ما أشاء من الشركاء، وأحدّد لك وظائفك، هل يرضى ذلك السيد من عبده المملوك هذا القول؟ وهل يستجيب له أو يقره عليه؟

بالتأكيد لا، فإذًا كيف تحاولون أن تجعلوا لربكم المالك الخالق الذي أوجدكم من عدم، وجعلكم شيئًا مذكورًا بعد أن لَمْ تكونوا شيئًا مذكورًا، واستعمركم في الأرض، وسخّر لكم كلَّ شيءٍ، وآتاكم من كلّ ما سألتموه؟ فكيف تتصورون أن يقبل الله –جَلَّ شَأْنُه– دعواكم الساقطة بأنَّ لله شركاء مما تصف ألسنتكم الكذب تزعمون أنَّهم شركاء له في سلطانه وتتجهون إليه بضروب العبادة والتقديس؟ فمرة تختارون هؤلاء الشركاء من الجن: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (**الأنعام:100**)، وأخرى تختارونهم من كبرائكم ومن تعظمون من أهل المال والجاه، ومرة تخلقون وتصنعون بأيديكم أصنامًا وتجعلونهم لله شركاء ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُواْ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُواْ لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (**العنكبوت : 17**) وفي جميع الأحوال اتخذتم من هواكم آلهة، ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَاهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ** ﴾(**الجاثية : 23**) وحينما تستمتعون بنعم الله لا تذكرون الله –تعالى– ولا تشكرونه عليها، وقد بلغت بكم الجرأة أن تجعلوا لله نصيبًا كأنَّكم الخالقون وتنحدرون أكثر حينما تجعلون لشركائكم نصيبًا من نصيب الله، الذي افتريتموه فأيُّ سفه تتخبطون فيه، ﴿**وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكَائِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ**﴾ (**الأنعام:136**).

﴿**بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ (**الروم:29**)

فأنتم لَمْ تتبعوا في شرككم وإنكاركم البعث والنشور والحساب والجزاء أيَّ دليل أو برهان، ولم تنطلقوا من منطق سوي أو حالة مقبولة، بل اتبعتم أهواءكم، ومن أضلّ ممّن اتبع هواه بغير علم ولا سلطان أتاه ولا دليل لديه من الله؛ فكيف ترضون لله ما لا ترضونه حتى لأنفسكم؟ أما وقد بلغتم هذا المستوى من الضلال فقد استحققتم أن يدعكم الله فيه؛ لأنَّكم استحببتم العمى على الهدى، وآثرتم الكفر على الإيمان ومشاقَّة الله ورسوله؛ فلا أمل في هدايتكم بعد أن ختم الله على قلوبكم التي أبت أن تفتح لأي نور أو دليل أو برهان أو الكتاب المنير.

النجم الرابع: الفطرة والدين القيم

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:**30-32**).

في قوله -تبارك وتعالى: (**فَأَقِم وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**) تذكرة بسيدنا إبراهيم والحجة التي منحها الله إيَّاه، ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ** ..﴾ (**الأنعام:83**) ففي تلك الحجة التي بسطها إبراهيم على قومه وأعلن براءته من المشركين كافَّة، وفي مقدّمتهم أبوه وقومه قال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (**الأنعام:79**)، فَلِمَاذا قال الله -تعالى- لرسوله الكريم محمدٍ -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد كلِّ تلك الآيات التي استدلّ بها على وجود الله ووحدانيَّته، والبعث والنشور والجزاء والجولة الطويلة التي جال القرآن بها بين المشركين وآرائهم وتخرّصاتهم، وأطروحاتهم السقيمة، كأنَّه يختم ذلك كُلَّه بأن يأمر نبيه الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن يقيم وجهه للدين حنيفًا؟.

فقوله -تعالى-:" فأقم وجهك" هو مثل قوله -تعالى-: " أقم الصلاة" التي جاءت في العديد من السياقات في القرآن، تحمل الأمر لرسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- ألَّا يعبأ بكفر من يكفر، ولا بضلال من يضلّ؛ فقد بلغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح لهم، ولكنَّهم لا

يحبون الناصحين، فحين يقول له: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾؛ فكأنَّه يقول له: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (**الزخرف:43**)، فأقم وجهك للدين واستقم عليه كما أمرت، وادع إليه إنَّك على صراط مستقيم، ﴿.. **فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ (**الأنعام:89**)، فإذا كان هؤلاء قد عميت أبصارهم وأغلق الوَقْر آذانهم وختم الكفر على قلوبهم، فهناك ملايين أخرى من البشر الذين ما تزال فطرتهم نقيَّة سليمة مهيئين للإيمان بك وبالرسالة التي حملت والدعوة التي بلغت، والوجه والحالة هذه معبر عن الإنسان كُلِّه، وهو في حالة الإقبال على الشيء، فقوله -جَلَّ شَأْنُه: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ يأمره بالإقبال التام على رسالته، والدين الذي يحمل ويدعو الناس إليه، فكأنَّه يريد أن يقول له: لا تشغل نفسك بهؤلاء فلا يشغلوك ولا يلهوك عن رسالتك، وليكن توجهك للدين القيم توجهًا تامًّا، لا يُنشغل بغيره عنه كما قال الله –تعالى: ﴿**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى**﴾ (**عبس:5–10**). فإنَّ ما يثيره هؤلاء ليست أسئلة حقيقيَّةً لمعرفة الحقّ، بل نجمت عن شغب، ومحاولة إلهاء رسول الله –صلى الله تعالى عليه وآله وسلم– وهكذا نجد السياق القرآنيَّ يأتي في كلّ موضع بطريقة تؤدي للرسالة وصاحبها –صلى الله عليه وآله وسلم– عدة توجيهات ودواع تستهدف تقوية عزيمته –صلى الله عليه وآله وسلم– على الصبر والمصابرة، وفي سياق آخر حينما اشتدت الأمور ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾ (**القلم:48**) وحين يوجهه -جَلَّ شَأْنُه- إلى التمسك بما هو عليه وإقامة وجهه له يعزز ذلك بقوله﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ ؛ لأنَّ المعصوم قد يتساءل: لماذا ينصرف الناس عن تلبية رسالته؟ فقيل له: إن ما تحمل من دين هو الدين القيم لا أقوم منه ولا أعدل ولا أشد منه، وهو في الوقت نفسه فطرة الله التي خلق الناس عليها لا تبديل لخلق الله، إذًا فالانحراف ناجم عنهم وعن كبرهم وحسدهم، أمَّا أنت والدين الذي تحمله فإنَّك على صراط مستقيم، تحمل دينًا قيمًا متصلًا بالفطرة. وقوله -جَلَّ شَأْنُه-: "فطرة الله التي فطر الناس عليها" يوضح بجلاء أنَّ الله حين خلق الخلق فطرهم وخلقهم وأودع فيهم استعدادات تمكنهم من معرفة الله –جَلَّ شَأْنُه– وأنَّه واحد أحد، خلق كلّ شيءٍ وقدره، فهو الخالق البارئ المصور، وهو الرحمن

الرحيم، وهذه الفطرة من شأنها أن تتقبل الدين القيم، وما فطر الله الناس عليه، وعهدهم مع الله واستخلافه لأبيهم آدم، وايداعهم لأمانة الاختيار في جذور قلوبهم، وأنَّ هناك ابتلاءً يعقبه جزاء، وهذه الفطرة تظهر أحيانًا دون دعوة أو نبوة أو رسالة كما في قوله –تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إذا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كلّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ (يونس:**22**) وقوله –تعالى: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأرضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ**﴾ (يونس:**31**)، وقوله –تعالى: ﴿**قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**﴾ (المؤمنون:**84–89**). وقوله –جَلَّ شَأنُه: ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ**﴾ (النمل:60-66) فهذه الآيات الكريمة، تبيِّن كيف تبرز الفطرة بوصفها قابليَّة في الإنسان، تدعوه إلى الإيمان بالله، ومعرفته وتدعوه إلى الالتزام بالدين والتمسك به، فالكفر والشرك والنفاق والضلال كلّها تُعَدُّ معادية للفطرة ومضادة لها مناقضة لما توحي به، فكأنَّه يقول لرسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– :هؤلاء إن قاوموك ورفضوا دعوتك واستكبروا عن اتباعك فإنَّما يحاربون فطرتهم

التي فطرهم الله عليها، ويقمعون هذه الفطرة قبل أن يردّوا عليك أو يرفضوا الاستجابة لك، ولذلك يقول -جَلَّ شَأْنُه- عن هؤلاء وأمثالهم: ﴿.. **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (**النحل:33**)، ولذلك فإنَّ حسرة هؤلاء ستكون شديدة خطيرة بعد أن يكتشفوا أنَّهم خالفوا فطرتهم واستكبروا على ما أودعه الله فيهم، فآلوا إلى ما آلوا إليه، ونصر الله نبيه وقيَّض له ولدينه الْقَيِّمِ أقوامًا آخرين، يحبهم الله -تعالى- ويحبونه، أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين.

إنَّ الله -سبحانه وتعالى- قد أمر رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يقيم وجهه للدين حنيفًا، ومن عادة القرآن المجيد إذا ساق أمرًا بهذا الشكل، أن يشمل الذين آمنوا مع رسول الله -صلى الله عليه و آله وسلم- فهو العبد الشكور الصبور -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي يحب أن يتبتَّل إلى ربه على الدوام، فإذا خوطب بأمر كهذا فكأنَّه قيل له فأقم ومن معك، أو فأقم وجهك للدين حنيفًا مائلًا عن جميع الأديان ومن معك ويأتي قوله -جَلَّ شَأْنُه: ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (**الروم:31**)؛ ليدل على ذلك، ويشير إليه، فيكون المراد أن نواة الأُمَّة المسلمة بقيادة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- مطالبون جميعًا بأن يكونوا منيبين لله راجعين إليه باستمرار، لا يغفلون عن ذكره، وإذَا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون، وأنابوا إلى ربهم مرة أخرى وهم يتحلَّون بالتقوى دائمًا، فقد أُلزِموا كلمَتَها واستقاموا على الطريقة، حتى صارت التقوى لهم مَلَكَةً وشعارًا ودثارًا.

وقوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿**وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ تنديد بأهل الشرك وبيان لوضاعة مكانتهم عنده -سبحانه وتعالى، بحيث يحذِّرُ الرسولَ -صلى الله عليه وآله وسلم- والمؤمنين من أن يكونوا مِنْهُم، أو ممَّنْ يشابهونَهم في تصرفاتهم، من تزييف الفطرة والخروج عليها، والتي هي من الثوابت التي لا تبديل لها، وإذَا جاءهم دين فلا يأخذونه كما ينبغي أن يؤخذ بقوة واهتمام، بل يفرِّقونه ويجعلونه عِضِين، وينتقون منه ما يشتهون ويرفضون ما لا يستجيب لشهواتهم ورغباتهم؛ فيكونون آنذَاكَ شِيَعًا تتفرَّق كلمتُهم جزاءً وفاقًا لما فرَّقوا من دين الله، وحولوه إلى أجزاءٍ وأعضاءٍ يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها الآخر، ويأخذون بما يشتهون ويتجاوزون ما لا يرغبون؛ فحقُّهم أن يكونوا شيعًا وفرقًا يذيق بعضهم بأس بعض، ويضرب

بعضهم رقاب بعض، ويقتتلون كما اقتتل أتباع الأنبياء من بعدهم لمثل تلك الأسباب. وقد عرَّف الله –تعالى– التَفَرُّق في الدين أنَّه شرك؛ لأنَّ المشركين لا يستطيعون أن يتقبَّلوا التوحيد الخالصَ، فتراهم يعملون على الدوام باختراع واتخاذ شفعاء ووسطاء يزعمون أنَّها تقربهم إلى الله زلفى، ويطوِّرون بهؤلاء الشفعاء، فهناك الأصنام المعروفة والأوثان، وهناك الحكام المستبدون والطغاة الذين يريدون العلوَّ في الأرض والبغي على أقوامهم، وهناك صُلَحاؤُهم، الذين يعظِّمونهم ويمجِّدونهم، وينسبون إليهم ما لا يُرضي اللهَ، أن ينسب إلى غيره، وقد يشركون أهواءَهم ورغباتهم وأولادهم ونساءَهم، كما أنَّ هناك ما يسمَّى بأوثان المجتمع، فكثير من المجتمعات تصنع لنفسها أعرافًا وتقاليدَ ورموزًا، قد تبلغُ بها في بعض الأحيان مستوى الشرك، وهي من أخطر الأوثان؛ لأنَّ الإنسان يصعب عليه أن يخرج على مجتمعه وبيئته، فقد يُشعرُه ذلك بنوع من الاغتراب عن المجتمع فيتجنَّبه، فنجدهم حين يدعون إلى شيء من أمور الدين يقولون "وماذا نقول للناس؟ كيف سينظر الناس إلينا؟" إلى غير ذلك من أصنام وأوثان، تؤدي إلى التَفَرُّق في الدين وتشيُّع كلٌّ إلى مذهبه.

التوحيد الخالص–إذًا– يحتاج إلى عنايةٍ ويقظة دائمة من أصحابه؛ ليجتنبوا الرجس من الأوثان. ومن دون لطف الله وعنايته وحفظه وتسديده يقعُ غالبيةُ الناس في الشرك، ولذلك قال –تعالى: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (**يوسف:103**)، وقال –تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ (**يوسف:106**).

إنَّ الأُمَّة اليوم تتساءل على مستوياتها المختلفة عن أسباب تفرُّق كلمتها، وضياع وانهيار وحدتها وتحولها إلى شيعٍ وأحزابٍ وفرقٍ وطوائفَ قد يقتل بعضهم بعضًا، على مجرَّد الخلاف المذهبي والطائفي، كما حدث في بُلدان كثيرة وعصور كثيرة؛ فالتاريخ يذكر لنا إضافة إلى الطوائف والفرق والنحل، يذكر الفتن التي جرت بين المذاهب، فتنة الأشاعرة، والمعتزلة في خلق القرآن، وفتن الشيعة والسنَّة بطوائفهم المختلفة، وفتنًا بين الشافعيَّة والحنفيَّة، وما نزال نقرأ في كتب الفقه فصولًا تتحدث عن حل أو تحريم زواج الشافعي بالحنفيَّة والعكس، فضلًا عن تلك الأبواب التي تتحدث عن جواز زواج السنَّة بالشيعة والعكس، كذلك نجد فصولًا تتحدث عن الكفاءة في النكاح فتبين أنَّ القرشيَّة لا يكافئها إلَّا قرشي، وقد ترسخ ذلك وتحول إلى تقاليدَ سائدة في معظم أنحاء الجزيرة العربيَّة، ونسمع اليوم عن القبيل والخضير

والقضاة الذين قد يفرقون بين زوجين أحدهما قبيلي والآخر خضيري بحجة عدم الكفاءة، وفي ظل ذلك التَفَرُّق والتشرذم ضاعت الروابط المشتركة بين عناصر الأُمَّة، وانهارت دِعامة التأليف بين القلوب التي أوجدها الله -جَلَّ شَأْنُه- بنفسه، وها هي ذي المؤتمرات تعقد وتنفض ومؤسَّسات التقريب بين المذاهب والطوائف، تؤسِّس وتنهار دون أن تؤدي إلى جمع شمل الأُمَّة أو إعادة بنائها، وممَّا زاد الطين بلة أنَّ أهل العلم وقادة الرأي والقادة السياسيين كلّ أولئك قد عَدَّوا ذلك أمرًا واقعًا لا بُدَّ منه، ولا يمكن إزالته، ولا بد من التعايش معه وتقنينه والاعتراف به، وربما يستشهد بعضهم بأفهام خاطئة لبعض آيات الكتاب الكريم مثل قوله -جَلَّ شَأْنُه: ﴿.. **وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ..﴾ (**هود:118-119**)، فيفسِّرها بعضهم بأنَّ الاختلاف المذهبيَّ والطائفيَّ اختلاف مقدَّرٌ لا بُدَّ أن يقع، وأنَّ الله خلقهم مختلفين وليختلفوا، ولكن الأَمر ليس كذلك، فقوله تعالى: ﴿.. **وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ..﴾ عائد على الرحمة وليس على الاختلاف، أي "للرحمة خلقهم"، ومن رحمته ولطفه أنَّه أنزل إلينا هذا الكتاب الهادي، وأمرنا بالاعتصام به، وحذَّرنا من تجاهله أو الابتعاد عنه؛ لأنَّ ذلك سوف يؤدي إلى فرقتنا وانهيار وحدتنا وزوال ألفتنا، وتناكر قلوبنا كما نشهد في الواقع؛ فهذا التفريق للدين وتمزيقه والفرق المختلفة وتعريض الأُمَّة للمستغلين من شياطين السياسة، يقودونهم للتحارب والتسالم وَفْقًا لمصالحهم السياسيَّة ورغباتهم الاستعلائيَّة، ففرَّقوا دينهم، وصاروا شيعًا، كلُّ حزب بما لديهم فرحون.

﴿**وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**﴾ (**الروم:33-35**)، في هذه الآيات الكريمة، إشارة إلى أنَّ هذا الإنسان خُلِقَ ضعيفًا، لديه استعداد للسقوط السريع في حبائل الإحباط واليأس والقنوط، ولديه استعداد سريع للإحساس بالنشوة والفخر والخيلاء والاعتداد بنفسه وطاقاته، وتناسي ضعفه وفاقته، فيبين الله —جَلَّ شَأْنُه— لنا أنَّ الإنسان ما دام حيًّا فهو يتقلب في صحته وماله وعلاقاته ونفوذه وسلطانه بين البأساء والضرّاء والسرّاء والنعماء، كما يقال: "يوم لك ويوم عليك"، قال الله -تعالى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ**

لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (**العنكبوت:65–66**)، في حين أنَّ الله –جَلَّ شَأْنُه– نبَّه المؤمنين فقال –جَلَّ شَأْنُه: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾** (**البقرة:155–156**)؛ وذلك لتوطين أنفسهم وتهيئتها لعوارض الحياة، فهي اختبار وابتلاء وامتحان، قال –تعالى: **﴿كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾** (**الأنبياء:35**) فكان ينبغي على الإنسان ألَّا تطغيه النعمةُ وتقنِطُهُ النقمة، وإذَا لفظ لسانه بالدعاء عند الفتنة، أو مس الضرّاء فيفترض أن يصنع من الشكر ودعاء الشكر ما يوازي ذلك ويقابله، أما إذا أبطرته النعمة وأقنطته النقمة، فإنَّه سيقع في الشرك، والشرك أصناف ومستويات فقد يشرك علمَه وقدرَتَه فيقول: "إنَّما أوتيته على علم عندي"، أو الأسباب والسنن فيقول: (لولا أنَّنا فعلنا كذا وأعددنا كذا لاستمررنا في الضرّ)، فالشيطان كأنَّه يشهد حالة الابتلاء هذه وتقلب الإنسان في صروف الحياة فيغتنم تلك الفرصة، ويشق طريقه إلى إيقاعه في الشرك في حالات ضعفه ، وذلك يفرض على الإنسان أن يكون ذاكرًا لله على الدوام، حامدًا، شاكرًا، صابرًا، ذاكرًا باستمرار. فيهدد الله هؤلاء الذين أشركوا بقوله: **﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** (**العنكبوت:66**) يوم تلقون ربكم أنَّكم ضللتم وأشركتم به ما لَمْ ينزل به عليكم سلطانًا، فالله –جَلَّ شَأْنُه– لَمْ ينزل عليكم سلطانًا – كتابًا أو صحفًا– يمكن أن تستدلوا بها أنَّها كانت تتكلم بما كانوا به يشركون، يقول الله –تعالى: **﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾** (**المؤمنون:55–56**)، وقوله –جَلَّ شَأْنُه: **﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالحقّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** (**الجاثية:29**)، وقوله –تعالى: **﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالحقّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** (**المؤمنون:62**)، أمَّا هم فليس لديهم سلطان أو كتاب ينطق بما كانوا به يشركون، **﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾** (**المؤمنون:63–67**)، وقوله

-جَلَّ شَأْنُه: ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾ (**الروم:36**)، فكأنَّها طبيعة في الإنسان كامنة فيه، فحين يفرح ينسى المنعم –جَلَّ شَأْنُه، وإِذَا أصابتهم سيئة بما قدمت أيديهم أصابهم القنوط والإحباط، مع أنَّ الله –تعالى– قد قدَّم لهم أنَّ الحياة الدنيا دارَ ابتلاء، وأنَّ عليهم أن يتوقعوا السرَّاء والضرّاء ويعدوا أنفسهم لكلِّ حالة من الحالتين، فيقوموا بواجب الشكر إذا مستهم السرّاء، وبواجب الصبر والتوجُّه إلى الله –تعالى– إذا مسَّتهم الضرّاء.

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (**الروم:37**)

الله –سبحانه وتعالى– يوسع ويضيق على الإنسان في الرزق، ﴿**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (**العنكبوت:62**) وفي هذا كُلّه حِكَمٌ وآيات على الإنسان أن يدركها، لكن لا يدركها إِلَّا القوم المؤمنون فقط، ويقول –تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسان إِذا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾ (**الفجر:16**)، فالإنسان يقول أكرمني أي عن استحقاق منّي لذلك، أي لولا أنَّه راضٍ عني، وأنِّي مستحقٌّ لها لما أكرمني، فينسيه ذلك شكرَ النعمة والتعلُّقَ به، وإِذَا قَدَرَ عليه رزقَه قال ربي أهانني أي حقَّرني وضيَّقَ عليَّ؛ فيشغله الحزنُ والشكوى عن الصبرِ والدعاء والتضرُّع، ففي الأولى تطغيه النعمة وتنسيه الشكر، وفي الثانية تنسيه النقمة أن يصبر؛ فكان يجب أن يتذكر أنَّ الله –تعالى– هو المنعِمُ وهو المعطي والمانع، فالأَمر كُلُّه لا يخرج عن حالات ابتلاء بالسرَّاء والضرَّاء، ليس له أن تطغيَه النعمة، أو تذهب صبرَه النقمةُ؛ لأنَّه إذا أراد النجاح في هذا الابتلاء، فعليه أن يشكر ويصبر في النعمة والمصيبة، ويقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وأنَّ الله –تعالى– إذا أخذ نعمةً فقد ترك ما لا يُحصى من غيرها من النعم، وحكمة الله –جَلَّ شَأْنُه– لا تغيب عن أيّ أمر يقدره، وفي ذلك كُلِّه آياتٌ لقوم يؤمنون، يعمر الإيمانُ قلوبَهم، ويجعلهم من الشاكرين الذاكرين الصابرين، ويُعينُ على ذلك ما جاء في قوله –تعالى: ﴿**فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (**الروم:38**)؛ فذلك خير لمن

يخلصون النيَّة له –سبحانه، فيما يقدِّمون، وقد ضرب الله مثلًا للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، لا يريدون إلَّا وجهه، في قوله –تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فإن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (**البقرة:265**)، وللذين ينفقون في سبيل الله مواصفات عديدة، ورد أهمُّها في آيات سورة البقرة، من قوله –تعالى: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (**البقرة:261–264**).

ويمكن تلاوة الآيات الأخرى التالية لها؛ لتتَّضحَ مواصفاتُ الصدقة، التي يراد بها وجهُ الله، أمَّا ذوو القربى فهم أقارب المعطي، وخاصَّة المحتاجين منهم. والمساكين هم المحتاجون المعوزون، الذين لا يسألون أحدًا، أو الذين قال الله عنهم: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأرضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ (**البقرة:273**)، وابن السبيل هو المسافر المحتاج؛ لبُعدِه عن أهله، فذلك الإنفاق في هذه الأوجه خير للمنفق من كَنْز المال، وبذلك يدخل تحت المفلحين –بإذن الله؛ وبذلك يبين ما يمكن أن يفعله الشحُّ والبخلُ في الإنسان، ويحول بينه وبين أن يتصدق وأن يريدَ وجهَ الله فيما يعطي ويتصدَّق.

ويقابل هذه الصورة الجميلة صورة بشعة لإنسان يبلغ به الشحُّ، ليس عند مستوى منع حقوق المال كافَّة عن أهله وأصحابه ومستحقيه وحسب، بل يحاول أن يقتنص من أموال الناس ما يستطيع، وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾ (**الروم:39**)

ليقابل ﴿**فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (**الروم:38**)، فهذا إيتاء وذاك إيتاء، ولكن شتان بين الاثنين، فأحدهما يؤتي ماله يريد وجه الله للمحتاجين إليه،والآخر يؤتي ماله ليستردَّه أضعافًا مضاعفة من الناس الذين هم من ذوي الحاجة خاصَّة، فأولئك الذين يؤتون أموالهم لتربو في أموال الناس، ويتقاضون عليها الرِّبا فَإِنَّها لَنْ تربوَ عند الله، قال -جَلَّ شَأْنُه: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ (**البقرة:275-276**)، وما أجمل السياق الذي وضعت هذه الكبيرة فيه، فقد وضعت بين قوله -تعالى: ﴿**فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (**الروم:38**) وقوله: ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾ (**الروم:39**) ليبين الله -تعالى- الفرق بين المتزكّي والمتصدق والمرابي وهو فرق كبير؛ فالله -جَلَّ شَأْنُه- ينبهنا: ﴿**يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ (**البقرة:276**)؛ فهو يربي الصدقات ويضاعف الزكوات مثلما في قوله -جَلَّ شَأْنُه: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (**البقرة:261-262**) وقوله -جَلَّ شَأْنُه: ﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾ (**الروم:39**) يربطنا بقوله -تعالى: ﴿**مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (**البقرة:245**).

وبعد تلك الجولة الطويلة في عناصر الضعف الإنساني والمداخل المختلفة التي تقود إلى الشرك، يأتي قوله -جَلَّ شَأْنُه: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (**الروم:40**)،

ليقرّر ويذكّر بالحقيقة الثابتة، أنَّ الله –تعالى– هو من خلقنا ورزقنا، ثم يميتنا، ثم يحيينا، فهل من شركائكم الذين تزعمون من يستطيع فعل شيء من ذلك؟ فالاستفهام هنا يردنا إلى الآية الكريمة: ﴿**ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (**الروم:28**)؛ لتستدعي هذه المقارنة من جديد، وتضعها أمام أهل الشرك ليقرّوا بأنَّه ليس أحد منهم أو من شركائهم والأرباب المتفرقين الذين اتخذوهم أربابًا من يفعلُ ذلكم من شيء، وبالقطع ستكون الإجابة عن هذا السؤال بالنفي، فلا أحد غير الله –جل شأنه– قادر على فعل ذلك، فكان يجب عليكم طاعتُه وَحْدَه دون شريك، فتعالى الله عمَّا يشركون عُلوًّا كبيرًا.

النجم الخامس:

﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (**الروم:41**)

يأخذنا السياق إلى الإشارَة إلى ظهور الفساد، أي شاع هذا الفساد وانتشر في البرِّ والبحر، ويمكن أن يضاف الجو والفضاء أَيضًا (الذي هو فوق البر والبحر)، وقوله –تعالى: "**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**"، يأخذنا إلى قوله –تعالى: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأرضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ (**الشورى:27**)؛ لأنَّ الله –جَلَّ شَأْنُه– وهو الخبير البصير بالعباد قد قال: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ (**العلق:6–7**)، فهذا جزء من طبيعته، إذا لَمْ يهتد بهداية الله ويحفظه الله ويَصُنْهُ، وقوله –جَلَّ شَأْنُه: ﴿**لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ يَتَّصل بقوله –تعالى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (**السجدة:21**)، فهذا العذاب الأَدنَى من حروب وفتن وجدب وقحط ومجاعات وانتشار الأمراض وقلة مياه الشرب وإذهاب البركة في الرزق، ومن جميع ما في الأرض، بحيث بدأ ساكنوها يظنّون بالله الظنون، فتخرج تقريرات جاهليَّة شركيَّة يسميها بعضهم تقريرات علميَّة، تتحدث عن أن ارتفاع نسبة السكان جعل ما في الأرض غيرَ كافٍ لكلِّ السكان، متجاهلين أنَّ الله –تعالى– قدَّر في الأرض أقواتها، وجعل فيها مجالًا لحصول كلِّ مخلوق على رزقه وما يحتاج إليه،

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرضِ إِلَّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (**هود:6**)، فما من طير ولا حيوان ولا بشر إِلَّا وفي الأرض ما يكفيه من رزق؛ ليعيش إلى الأجل المسمى، الذي سماه الله له، وهذه التقريرات لا تتحدث عن البطرِ والتبذيرِ في الموارد والإسرافِ والسفهِ في إنفاق المال وتَسَلُّمِ السفهاءِ زمامَ التصرف بالأموال، خارج حدود ما رسمه الله من شرائع، فاستباحوا الربا والاحتكار وتبديد الموارد والتحكم في الزراعة والصناعة وما إليها، ولو أنَّهم ما فعلوا ذلك وآتاهم الله الحكمة في التصرف، والتزموا حدود ما أنزل الله لما جاع إنسان ولا حيوان على ظهر البسيطة. ولو أنَّهم نظروا في هذه الأمور نظرة علميَّة كما يدعون لأدركوا أنَّ كلّ ما يحدث للبشريَّة على وجه الأرض، إنَّما يحدث لها بما كسبت أيادي البشر أنفسهم. وما لم يَعُدِ الناسُ إلى الخالق العظيم، وإلى دينه القويم وفطرتهم السليمة، ويقيموا وجوههم للدين حنفاء، فإنَّ جميع الخطط التي يرسمونها والتدابير التي يقترحونها لَنْ تغنيَ عنهم من الله شيئًا، لذلك تأتي الآية التالية؛ لتأمرهم بالسير في الأرض: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ (**الروم:42**) فهلكوا على الشرك، قال -تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (**العنكبوت:40**) ويقول الله —جَلَّ شَأنُه- في معالجة مثل هذه الأحوال ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (**النساء:146-147**).

ثم يوجه الله —جَلَّ شَأنُه- الأَمرَ الجازم؛ لمعالجة الفساد الشامل، وإنقاذ البشريَّة منه فيقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (**الروم:43**)، هو يوم القيامة، ويَصَّدَّعون أي يتفرقون، ويميِّز بينهم بشدة، كما سبق في الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (**الروم:14**)، ويعود السياق؛ ليؤكد أنَّ البشر إنَّما يفعلون ما يفعلون من خير أو شر فإنَّما هو لأنفسهم، وَلَنْ ينال اللهُ من تمسُّكهم بالدين، والتزامهم التقوى، وإخلاصهم العبادة له شيئًا من النفع، ولو أنَّهم جميعًا انخرطوا في الفساد الذي ظهر في كلّ مكان وعصوا الله -تعالى- فإنَّهم لَنْ يضروا الله شيئًا،

﴿**مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**﴾ (**الروم:44**)، قد يُضَيِّق على الكافرين في الدنيا ويقودهم إلى النار في الآخرة، وقال –تعالى–: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ (**الأعراف:130**) وقال –تعالى–: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ (**الأعراف:94–96**)، ﴿**مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ (**الروم:44–45**)، وقد يمد لهم في النعيم ليستدرجهم كما قال تعالى : ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَاذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ (**القلم :44**)، وأمَّا الذين عملوا صالحا فهم يمهدون لأنفسهم الطريق؛ ليصلوا إلى الجنة بسهولة ويسر، فيجزيهم الله بمقعدهم في الجنة، الذي يكون كالمهاد يستريح فيه، ويجزيهم الله –جَلَّ شَأنُه– جزاءً غير محدَّد من فضله –سبحانه، فالله –تعالى– يحبُّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولا يحب الكافرين.

وقوله –تعالى: ﴿**وَمِنْ آياته أن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ[19] مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (**الروم:46**)، يستدعي الآية الكريمة: ﴿**أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (**النمل:63**)، فهاهنا يعود، فيذكرنا بهذه النعمة العظيمة؛ للدلالة على وحدانيَّته، فيخاطب هؤلاء بشيء يعرفونه حقَّ المعرفة، مثل سائر الآيات في بقيَّة السورة، مثل الرياح،والمطر الذي ينتظرونه دائمًا بفارغ الصبر، والذي يحتاجون

---

[19] من عادة القرآن الكريم أنه يذكر مصطلح الرياح في سياق جلب الخير الذي يستوجب البشرى كما في هذه الآية وسواها ، بينما إذا يذكر مصطلح الريح في سياق العذاب والانتقام كما في قوله تعالى﴿ **وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ** ﴾ (**الذاريات : 41**) وكما سيرد في هذه السورة بعد قليل﴿**وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ** ﴾ (**الروم:51–53**).

إليه وتتوقف حياتهم عليه، فكأنَّه يقول لهم: هل تطالبون رسول الله بخوارق؟ فقد آتيناكم آيات كثيرة بينات مبينات، ونزيد عليها هذه، فقد أرسل الله الرياح مبشِّرات، وأنتم تعلمون هذه الرياح وتسمونها بأسماءٍ تختارونها لها، وتستبشرون بالرياح، التي تحمل الغيث، الذي ينزله الله عليكم بعد قنوط ويأس وتصحُّر، وتهديد يشمل الحياة كلَّها، وهو مصداقٌ لقوله -تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (**الشورى:28**)، فيبين الله -جَلَّ شَأْنُه- فوائدَ الرياح، ويجعل منها آية يستدل بها على التوحيد، وعلى البعث بعد الموت والجزاء، ويبيِّن لنا جانبًا من وظائفها؛ فهذه الرياح مبشِّرات تبشّرنا بنزول الغيث، ليذيقنا الله من رحمته، ولتكون أنهارًا وبحارًا، تحمل الفلك؛ فالله قادر على أن يمسك الرياح قال -تعالى: ﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ (**الشورى:33**)، فهو يرسل الرياح لتحرِّك الفلك على ظهر الماء، وتنقلكم من بلد إلى آخر فتتاجرون وتقضون مصالحكم، لعلكم بعد هذا تشكرون الله على هذه الآية العظيمة.

ويأتي -سبحانه وتعالى- بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (**الروم:47**)، فذكر الرسل بعد آية الرياح؛ لأنَّ الرسل أنفسهم كالرياح يأتونكم بالهداية، ويخرجونكم من الظلمات إلى النور، ويهدونكم إلى سبل الرشاد، فهم رحمة، كما أنَّ الرياح رحمة، فكان الأولى لكم أن تدركوا ذلك وتحسنوا استقبالهم، فالذي أرسلهم بالرحمة هو الذي أرسل لكم الرياح بالرحمة، مبشرات بعد انتظار وقنوط من الحياة، فالذين يجيئون بالبينات -وهم الرسل- هم في الحقيقة أهم إليكم من تلك الرياح التي تأتي بخير الدنيا فقط، فهؤلاء الرسل يأتون للناس بخيري الدنيا والآخرة، ومع ذلك تفرحون وتستبشرون بالرياح ولا تستبشرون بالرسل، فهذا إجرام في حق الله وحق الرسل، فكان من أعمال الذين أجرموا أن قتلوا الرسل، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، قال الله -تعالى-: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ (**آل عمران:21-22**)، ومن فضله -جَلَّ شَأْنُه- ورحمته أن عَدَّ نصره للمؤمنين حَقًّا لهم عليه،

بما آمنوا وأحسنوا واتبعوا الرسل والنور الذي أنزل معهم، وتستدعي هذه الآية قوله –جَلَّ شَأْنُه: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ (**غافر:51–52**).

بعد ذلك يقول –جَلَّ وعلا–: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**الروم:48–50**)؛ ثم يعود السياق –بعد ذكر إرسال الرسل بالرحمة– يُذكِّر مرة أخرى بإرسالِ الرياح بالرحمة. فيفصل الله –جَلَّ وَعَلَا– بدقة بديع خلقه في كيفيَّة تكون الأمطار، فتبدأ هذه العمليَّة العظيمة بإرسالِ الرياح بأمر الله –تعالى، فتثير السحب وتحركها في السماء فتُبسط وتنتشر في السماء إلى الأماكن التي يشاء الله تعالى سقياها، ثم تتحول هذه السحب إلى قطرات من الماء، يصيب به الله تعالى من يشاء، وهذه الآيات الكريمة تُذكِّرنا بقوله –جَلَّ شَأْنُه: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**﴾ (**النور:43**)، ويُذَكِّرنا بقوله –جَلَّ وعلا–: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (**الشورى:28**)، وقوله –جَلَّ شَأْنُه–: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إذا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأنزلنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (**الأعراف:57**)، فيخبرنا الله –تعالى– بفضله ورحمته علينا جميعًا، فمن رحمته تلك نزول الغيث، فلو لَمْ ينزلْ هذا الغيث لظلّوا على حالهم كما هم لا يستطيعون تغييره بأنفسهم، ولظلوا في حزنهم الشديد ممّا أصابهم من القحط واليأس والبأس؛ فنزول هذه الأمطار رحمة من الله تعالى بعباده، ليحييَ الأرض الميتة الجدباء، فمثل ذلك تمامًا ينزل الله الكتاب، ويرسل الرسل رحمةً من الله بعباده، ليحييَ النفوسَ بعد موتها بكفرها وضلالها، قال –تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إليه تُحْشَرُونَ﴾ (**الأنفال:24**)، فالله –جَلَّ شَأنُه– أرسل الرسل رحمة منه؛ لكي يهدوا الناس إلى شئون حياتهم الدنيا، وليؤمنوا بالله ربهم وبالدار الآخرة، المقبلين عليها، فيعبدونه حقَّ عبادته، فيحيون حياةً طيبة في الدنيا وفي الآخرة، فهذا كلُّه رحمةٌ بهم، من أن يتركهم فيضلوا في الدنيا ويكفروا بالله –تعالى–، فلا يحيون حياة طيبة في الدنيا، ويعذبهم في الآخرة بكفرهم وشركهم، فلماذا تستشعرون الرحمة الماديَّة من الغيث ولا تستشعرون الرحمة الحقيقيَّة بنزول الكتاب وإرسال الرسل، وكلاهما من الله –جَلَّ شَأْنُه؟!

يخبرنا المولى –جَلَّ وَعَلَا: **﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ * فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾** (**الروم:51–53**)، يعرّفنا الله –تعالى– بطبيعة بعض الناس، فلو أحسن الله إليهم بنزول المطر، ثم أرسل بعده ريحًا فرأوه مصفرًا من الأتربة التي يحملها بدل المطر أو رأوا زروعهم مصفرة بسبب الاحتياج إلى الماء، لعادوا إلى الكفر بالله، فهؤلاء كالموتى لا يسمعون من يكلمهم أو ينصحهم، وهم كالصم الذين لا يسمعون نداءً، ولا بشارة ولا نذارة، وهم كالعمي الضالّين الذين لا يهتدون إلى طريق مستقيم، إنَّهم مثل أُولئكَ الذين قال الله –تعالى– فيهم: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾** (**الحج:11–12**)، فلا تهتم بهؤلاء العمي الصم الموتى.

أمَّا من يستجيب لله ولرسوله فهم الذين يسمعون: **﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ﴾** (**الأنعام:36**)، والذين يؤمنون بآيات الله، فيعلمون حقها فيسلمون ويستسلمون لأمر الله وكلامه، بمجرد تلاوة آياته الكريمة، وتذكيرهم بها؛ فهؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله بإيمانهم، ويجعلهم ممَّن وصفهم بقوله –تعالى: **﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُو الْأَلْبَابِ﴾** (**الزمر:18**)، وينير أبصارهم وبصائرهم، فَإنَّها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

النجم السادس: العلاقة بين العلم والإيمان:

قال الله –تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ**﴾ (**الروم: 54–55**)، يُذَكِّرنا المولى –جَلَّ وَعَلَا– بأنَّ الإنسان تكوينه بدأ بضعفٍ وهو أساس التكوين، قال –تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللّهُ أن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا**﴾ (**النساء:28**)، ثم بعد ضعفه يبلغ بعض القوة، ويبلغ أشده، ثم يدخل في مرحلة ضعف أخرى وشيبة، قال –جَلَّ شَأْنُه: ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾ (**يس:68**)، قال –تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شيئًا وَتَرَى الأرضَ هَامِدَةً فإذا أنزلنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ (**الحج:5**) .فالله –تعالى– يُذَكِّرهم بضعفهم وضعف خلقهم وأنَّه هو خالقهم، فلم لا يستجيب المعاندون والمستكبرون رغم رؤيتهم بأمِّ أعينهم أنَّهم ضعافٌ، لدرجة أنَّهم لَنْ يخلقوا شيئًا حتى ذبابًا، بل وإن سلب منهم شيئًا لا يسترجعونه منه، قال –تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ (**الحج:73**)، ثم أنتم أنفسكم أيُّهَا المجرمون المستكبرون المعاندون لآيات الله، ستقفون بين يدي الله –تعالى– يوم القيامة، فتقسمون أنَّكم لَمْ تعيشوا إِلَّا قليلًا، قال –تعالى: ﴿**قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (**المؤمنون:112–114**)، فهذا الإفك الذي كنتم تحيون فيه من الانصراف عن الله –تعالى– وآياته وكتبه ورسله، هو الذي أوردكم مورد الهلاك، الذي أنتم واردوه يوم القيامة، رغم أنَّ هذه الحياة الدنيا صغيرة حقيرة، قال الله –تعالى: ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**النحل:77**)، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ**

إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (الروم:**56-57**).

ويكمل الله –تعالى– لنا مشهد يوم القيامة، فيرُد الذين أوتوا العلم –قيل هم الملائكة– أنَّكم أيُّهَا المجرمون الظالمون لبثتم أجلكم كاملًا، كما قدَّره الله –تعالى– في كتابه، فهذا هو يوم البعث الذي كنت تكذبون به، وبه تمترون، فاليوم لا تنفعكم معذرة: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ (غافر:**52**)، ولا تستحقون حتى العتاب عليكم، قال –تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**﴾ (النحل:**84**)، فمن فضل الله –جَلَّ شَأنُه– أنَّه ضرب لنا أمثالًا لما يحدث للأقوام المختلفة يوم القيامة، حتى يعلم الناس ما سيقع بهم، فلا يفاجأوا بشيء لَمْ يخبرهم به الله –تعالى، –فهذا رحمة منه سبحانه– لعلَّ الناس تؤمن وتتعظ، قال –تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾ (الإسراء:**89**)، ولكن يأبى أكثر الناس إِلَّا أن يكفروا بِكُلِّ تلك الآيات البينات والإنذارات، رغم أنَّهم كثيرًا ما كانوا يطلبون آيات، قال –تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّما الآياتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنعام:**109**) فتبيَّن أنَّهم كانوا كاذبين فيما يزعمون، لأنَّهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها فهم مبطلون، لا يريدون إِلَّا الصد عن سبيل الله، فلا تصدقهم يا محمد فهم معاندون مستكبرون، ولئن جئتهم بآية ليقولون لكم: (إن أنتم إِلَّا مبطلون)، قال –تعالى: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيات رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**﴾ (يس:**46**)، وقال –تعالى: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ**

مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (**الأنعام:4–10**)، فهم مستهزئون؛ لأنَّ هذا القرآن العزيز دائمًا ما يأتيهم بالحقّ وأحسن تفسيرًا، إذا ما أتوه بأي مثل، فلا يريدون إِلَّا الاستهزاء والصد عن سبيل الله؛ لأنَّهم من الذين طبع الله الكفر على قلوبهم بظلمهم، واستكبارهم وعنادهم وإصرارهم على عدم السمع والإبصار، فاصبر يا محمد –والأَمر بالصبر لنا أَيضًا– ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

بدأت السورة بالحديث عن المعركة، التي غُلِبَ الروم فيها، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، وختمت بقوله –جَلَّ شَأْنُه: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾** (**الروم:60**)، وأنَّ الله لا يخلف الميعاد، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون فيدفعوك لترهاتهم ومحاولاتهم إلى القلق والجزع واستعجال النصر، فإنَّ له موعدًا لا يخلفه، وسيأتي فكانت الهجرة والمعارك الحاسمة بينه وبين الشرك وأهله، حتى فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

أمَّا بعد فإنَّ هذه السورة تعدُّ من أهم سور القرآن المجيد، وأكثرها إنارة للسبيل في مواجهة المشركين والغرب وأعداء هذه الأُمَّة، فليتدبرها المتدبرون ويدركوا عظمة هذا القرآن الكريم وما يحمله من الهداية.

تم بحمد الله.